رواية ليالي العطش

تأليف

محمود فيصل

E : MOOD20004@YAHOO.COM

TEL : 002 01009004513

إهداء إلى روح أختي الغالية

رنا فيصل حجازي

رواية ليالي العطش

"مهما تسارعت الأمنيات فلن تسبق الأقدار"

كلما أراد أن يسرق لنفسه فرصة يحقق فيها حلمه، سلبها الزمن منه في لحظة، وكأنه يَحرمه منها أو يُحرّمها عليه. حاله كحال القابض على الماء في كفه، لم يأخذ من الزمن حتى الآن إلا سبعة وعشرين عاماً، هي التي تشكّل السنوات التي مرت من عمره.

يحلم أن يصبح مطرباً، لكن حظه في تحقيق هذا الحلم يساوي حظ الطائر مكسور الجناح بالطيران.

قابلته جارته نور عند سلم البيت، عندما عاد من إحدى شركات الإنتاج الفني بعد أن رفضوا سماع صوته، وعاملوه كالمتسول، إنها النور الذي من أجله تنتشر أحلامه على شواطئ ليله المظلم. لقد انتظرت عودته طوال النهار، وما إن رأته حتى علمت أنه لم يأتِ ظافراً ، خاطبته بهدوء:

- ستحقق حلمك يوماً ما

نفخ متأففاً ونافذَ الصبر.

أرادت أن تبث فيه الأمل، بابتسامتها الحنونة المشرقة كالشمس فقالت:

- الأحلام كالبذور التي تلقى في الأرض .. لا بد أن تنبت ويحين وقت الحصاد .. فلا تستعجل حصادها

أغمض عينيه ؛ وكأنه يبحث عن الأمل وسط العتمة:

- أخشى أن يكون الصبر رفيق العمر .. وألا يحين وقت الحصاد أبداً، وتبقى الحال على ما هي عليه .. ولا أحصد إلا سني عمري التي تذهب هباء.

حدثته مشجعة، وبد له أن عينيها تبدوان كشمعتين تنيران دربه بنور الأمل:

– ما من درب سهل في الحياة .. فالنجاح لا يأتي إلا من المستحيل

أجابها مالك بأسى :

– إن أكثر ما يؤلمني أنني أظلمك معي

فردّت عليه بتعجب مصطنع.

– لم أشكُ إليك أمري .. وهذه مشكلتي .

ردّ عليها مالك بحب :

أتمنى أن أحقق أحلامي لأفرحكِ .

نظرت إليه وقد ارتسمت ابتسامة مُحِبة على شفتيها وقالت له :

– أعلم ذلك .. ولذلك أنتظر وأصبر .

سألها منكسراً انكسار الحبيب لحبيبه :

– حقاً .. ألا تشعرين أنني أظلمك؟

هزّت رأسها ذات اليمين واليسار ببطء وكأنها تحركه على وقع موسيقى هادئة، دلالة على أنها لا تشعر بالظلم .حينها ابتسم مالك، محاولاً تغيير ملامح وجهه قائلاً:

– سأظل إلى جانبك إلى آخر العمر.

أسرعت نور الخطى ما إن سمعت نداء أمها. حينئذ، دخل مالك شقة عمه التي يسكنها منذ وفاة والديّه ، مع ابن عمه سامي الذي يكبره بسنتين ودينا التي تدرس في الجامعة. لم يشعر يوماً أنهما ولدا عمه بقدر ما شعر أنهما أخته وأخوه.

شاركه كل من في المنزل حلمه منذ صغره، إلا أن عمه كان معارضاً، ولكنه لم يحل دونه ودون حلمه. إلا أنه كان يقسو عليه باللوم وهو يرى سنين عمره تمضي وهو على هذه الحال.

يعمل مالك مع عمه في مخبزه، وهذا ما يؤلم العم ألماً شديداً، فهو يريد أن يراه مهندساً كبيراً، وإلا فلماذا أضنى نفسه كل تلك السنوات حتى نال شهادة الهندسة، إلا أنه يرى أن حلم مالك الذي يستغرق كل حواسه يحول دون تركيزه على مستقبله.

ما إن وصل مالك إلى المخبز حتى حدثه عمه واعظاً بلغة الأب:

- إنني أخشى على مستقبلك يا بني .. أخشى من تعلقك بحبال الوهم، وعندما تستفيق يكون العمر قد فات.

شعر مالك بكلمات عمه كالريح التي تدخل من نافذة مشرعة فتطفئ شمعة الأمل التي أضأتها نور على سلم البيت .

ما إن أنهى العم عظته، حتى ضرب الحديد وهو حامٍ ، فدفع إليه الصحيفة حيث قرأ إعلان عن شركة مقاولات بحاجة إلى موظفين، وطلب منه التقدم إلى الوظيفة، فوعده أنه سيفعل.

في اليوم التالي، ما إن وصل مالك إلى المخبز حتى قابله عمه باللوم قائلاً:

- لماذا أتيت إلى هنا.

أجابه مالك وهو يبدل ملابسه:

- المقابلة الساعة الثانية بعد الظهر.

في تلك الأثناء رأى مالك عمه في حالة من الكرب اعتاد أن يراه عليها. فسأله:

- هل تحدثت مع شريكك اليوم ؟

جلس العم مهموماً، وكأنه بجلوسه يستريح من ثقل الهم وأجابه :

- لو أنني أملك المال لأعطيته حصته وانتهى الأمر .. لكنني للأسف مضطر لتحمله.

حينئذ قال مالك محاولاً التخفيف عن عمه:

- غداً تفرج .

نظر إلى السماء، داعياً الله أن يزيل عنهم هذه المحن، ثم انكب يجهز المخبوزات بينما كان عمه يراقبه. لمح مالك نور في الخارج، فابتسم، وترك ما بيده، وخرج مسرعاً أوقفها أمام المخبز. لمحهما العم من الداخل، فابتسم بعدما رأى الحب يرفرف بجناحيه حولهما.

عاجلته نور قائلة:

- لا تظن أنني مررت من هنا كي أراك .. إنني في طريقي إلى العمل.

ابتسم مالك بمكر وهو ينظر حوله وسألها:

- هل أغلقت الشوارع الأخرى اليوم ؟

ابتسمت بخجل، فخرجت من شفتيها ابتسامة مخنوقة كنوته ناي عذبة، في تلك الأثناء خرج العم من المخبز حاملاً كيساً من المخبوزات أعطاه لنور التي رفضته بشدة، حينها أعطاه لمالك تاركاً له تدبر الأمر مع نور، ونظر إليها قائلاً:

- ادعي له أن يوفقه الله ويقبل في شركة المقاولات.

نظر مالك إلى عمه، وفي عينيه لوم لأنه أخبرها، فقابلته نور بلوم أشد وقالت متعجبة:

- شركة ومقابلة !!

ابتسم العم، من تصرف مالك المتكتم تجاه نور، وتركه ينال عقوبة التكتم من حبيبته، فما كان من نور إلا أن أعادت سؤالها:

- لماذا لم تخبرني عن هذه المقابلة ؟

رد عليها بصوت رقيق:

- لأنني لم أتخيل نفسي وقد تركت حلمي بالغناء .. والتحقت بعمل لا أحبه.

أدركت الوجع منه وكأنما لا تريد أن تنال من ألمه تربت على صدره بحنان حديثها :

- عليك أن تضحي وتحب ما تعمل .. حتى تعمل ما تحب.

فرد عليها مالك:

- برأيك لم أضحِ حتى الآن ؟

فحدجته نور بنظره مستنكرة وقالت:

- اعلم يا مالك .. أنه عندما يريد لك القدر أمراً، فلن تسعى إليه .. بل هو من سيسعى إليك وسترى الدنيا كلها تركض خلفك.

ابتسم لها شاكراً لها جرعة الأمل التي سعت لبثها فيه ، وأعطاها كيس المخبوزات ، فأصرت على رفضه، فشد معصمها، وأعطاها الكيس قائلاً :

- إنه ليس لك بل لزملائك.

نظرت نور إلى يده التي لا تزال تطوق يدها وسألته:

- تقصد لأجل أن تظل تمسك بيدي .

فأجابها وهو يبعد يده بسرعة مبرراً السبب :

- لم أقصد .. ولكن الموقف هو الذي فرض علي هذا.

أعطاها الكيس مجدداً ، واستمرت بالرفض، فقال لها وهو يداعبها بنظرات عينيه :

- إن أصريت على الرفض .. فسأستغل الفرصة وأطوق يدك الحريرية هذه مرة أخرى .. وعندها أرجو أن لا تلومينني.

أخذت الكيس منه، وهي تحرص أن لا تتلامس أصابعهما.

وقال لها:

– إنه لزميلاتك وليس لزملائك.

سألته عندئذ، وهي تتلاعب بتعابير وجهها :

– أهذه غيرة ؟

فهمس لها:

– وقد تبلغ في بعض الأحيان حدّ الجنون.

وكأنها تريد أن تخرج من حالة الخجل التي تسببها عرقها الحب، تسأله وهى لا تستطيع أن تكمل الابتسامة :

– في أي ساعة المقابلة ؟

أجابها مالك :

– عند الساعة الثانية بعد الظهر.

همست له :

– سأنتظرك في تمام الساعة الثالثة في المكان نفسه، لا تتأخر.

فردّ عليها بالهمس عينه:

– أظن أن وصالك هو دافعي للذهاب إلى هذه المقابلة.

نظرت نور إلى ساعتها وقالت:

– وستكون أنت الدافع إلى طردي من العمل.

تركته وأسرعت الخطى، فشعر بارتفاع في المعنويات، وبأن رأسه يجاور النجوم، وأن قدماه راسختان على الأرض، تنهد تنهيد العاشق الذي يمتلئ خزان قلبه بوقود الحياة كلما التقى محبوبة .

* * *

بعد طوال الوقت في الانتظار أنهى مالك المقابلة متجاوزاً كل الأسئلة ، وواقف عنده حاجز الخبرة التي افتقدها من سنوات البحث عن فرصة لموهبته . فقرأ على وجه المدير الجواب الذي سوف يتلقه بعد أيام خرج من الشركة لا يبالى لأي شئ من القرار غير أنه محاولاً إلحاق بميعاد نور ، حتى أنه ظل يركض في الشارع كي لا يهدر الوقت ويفوت الميعاد . ذاهباً في ميعاد انتهاء الدوام من الشركة وقميصه كله مبلل من العرق الذي بذله للحاق بميعاده . واقفاً أمامها بجوار زميلتها ، صدره ينهج وارتسما على وجه نور الاندهاش سألته :

- هل كانت المقابلة في إستاد القاهرة !

التقط أنفاسه بعد أن سمع أخر سخرية قادمة من نور :

- يبدو أن المقابلة كانت بها مجهود كبير ؟

أخذ مالك زجاجة الماء تجرعها كلها ثم نظر إلى نور مجيباً :

- خشيت أن افقد ميعاد خروجك

ابتسمت نور وزميلتها على الإحساس الذي ينصع من عينيه ، فلا تجد من نفسها إلا الانسحاب حتى تمهد الطريق ولا تطير الطيور من على الغصون ، تودعها نور وهى لازلت ناظرة إلى مالك سألته عن مقابلة العمل اليوم ، أجاب عليها بعد أن فتح له الطريق لسير سويا :

- مثل كل مقابلة فعلتها في حياتي

تعجبت من عاجلته في القرار :

- هل علمت بنتيجة المقابلة بهذه السرعة !

حرك مالك رأسه ذات اليمن تارة وأخرى ناحية الشمال معلقاً :

- يحتاجون لأصحاب الخبرة في العمل

- المهم أنك فعلت ما عليك... وأترك الأمر لله

منفاخاً مالك من الضيق :

- لقد سئمت

استوقفته نور وعلى وجهها ابتسامة خفيفة قائلة :

- تسما وأنا بجانبك

نظر في عينيها التي قارن فيها الدنيا كلها في لحظتها قائلاً :

- لا أدرى لو لم تكوني في حياتي .. فماذا كانت حياتي الآن ؟

فأتت سيارة أجرة لوح لها مالك . وداخل "الكافية" جالسان ، أمامهم أكواب العصير . سألها مالك عن ما درأ برأسه طيلة الطريق :

- متأكدة أنكِ لم تشعري بالظلم وأنت معي

حركت رأسها بتعجب وصوت حامل الخجل والرقة بخجل من نبع الإحساس الهادي قائلة :

- مستحيل أشعر بظلم .. إلا أن بعدت عنك

وإن مالك يجيب إلا أنه وجدت عينيه تغرب عنها في تجاه أم تحمل طفل سألته متعجباً :

- تعرف هذه المرأة ؟

ولازلت عينيه على المرأة فأجابها :

- كنت أتمنى أن أكون مثل هذا الطفل .. لكني فقدت أمي وأنا لا أعلم حتى ملامحها .. ولم أجد صورة لها أسقى منها حنيني .. فكل صورها احترقت داخل شقتنا القديمة .. ولم يتبقى لي سوى الخيال .

سألته في الحال :

- وأين عائلة أمك ؟

وجهه المندهش أعطي الجواب :

- لم أعلم عنهم شيء .. وعندما سألت عمي أخبرني بأن أمي كانت من الصعيد .. غادرت مع والديها منذ زمن طويل .. ولا أحد يعلم عنها شيء .. فبعد أن مات والديها أصبحت في هذه الحياة وحيدة .

ابتسمت نور حتى أخرجته من هذا الحال الكئيب قبل أن تهاجمه الذكريات :

- تعلم أنها كانت جميلة ؟

ارتكن على ظهر الكرسي متعجباً :

- لا أعتقد إنكِ كنت تعرفيها ؟

نظرت نور في كوب العصير وكأنما الخجل تساقط منها كالأمطار قائلة :

- لكني أعرفك

علماً مالك ما تلمح عنه نور لكن أراد أن يداعبها :

- لم أفهم ماذا تقصدين ؟

أخذت لمحه من وجهه وكأنما اختلست نظرة منه ورجعت ناظراً في كوب العصير ثم حركته بين يد إصبعها وكأنما تفركه :

- عندما رأيت صورة والدك لم أجد ملامحك منه أو حتى من عمك

وكأنما أراد أن يتساقط الخجل من عينيها كالندى من على ورق الورد :

- تقصدين أنني أخذت الجمال من ملامح أمي ؟!

أكتفت بالجواب بإشارة من حركة رأسها وهى تغلق عينيها ، فأمسك مالك يدها وكأنما سنحت له الفرصة ، فإن وجدا تحول ملامح الخجل إلى عنف :

- الم تتذكر ما اتفاقنا عليه .

ابتعد يده كالذي اشعر بحرارة لهب وقدم أعذراه على الفور ، فحينها تغيرت ملامحها مرة أخرى :

- أحب دائما أن أحافظ على ثقة أهلي .. حتى لا أندم على حبي إليك .. أرجوك لا تغضب

ابتسم مالك :

- ربما أكون سعيد

نور التي تستطيع أن تمزج بين مشاعرها وأخلاقها قائلة :

- وأنا أشعر دائما أنني أسعد إنسانة في الدنيا .. والفضل ليك .. لكن تعلم أيضا أن لو إنسانة أخرى كانت في مكاني لكانت غضبت منك .

عاد مالك مداعبها :

- كل هذا لأنني لم أحاول محيلتك كي أمسك يدك!

هاجمته بنظرة تعجب وهى تميل برأسه على كتفها :

– لا طبعا .. لأنك تنازلت عن ميراثك لعمك

مالك متأثرا بما يخرجه من بين شفتاه :

– هذا أقل شئ ممكن أن أقدمه للعم .. ما أخذته منه أكثر بكثير مما أعطيته له... كلما أتخيل حياتي بدون عمى لكنت ..؟ ولا حتى كنت قابلت في مترله من جعلت لدنيتي وجود

ابتسمت نور على نبض إحساسها الذي أخرج الحروف بخجل :

– ما ندمت يوماً على نبضات قلبي إليك

أستمر الحديث في تحاور مستمر كسقوط الأمطار التي تسقى بذور الأرض ، وعادوا سويا للحارة ولا تخشى نور الناس بقدر مالك الذي يخشى نظرهم فقرر أن يبعد عنها قائلا :

– سأترك هنا حتى لا يتحدث عنكِ الناس

ترمقه نظرة غضب أوقفت السير قليل :

– أنت لم تكن غلطة ارتكابها حتى أخشى منها الناس

أطرف مالك عينيه ناحية الناس من حوله قائلا :

– أنني أخشى فقط من نظرات الناس وهمساتهم التي ممكن أن تلتهمك

نور بابتسامة ثقة تخطو فيها خطوتها :

– لو انك تخشى عليا حقا... فسكن خطوتك بجانب خطوتي

وكأنما أعطته الأمان ، يمشي بجانبها وكأنه لا يرى إلا مستقبلهم سويا ،. صعدا معها درج السلم فتخرج أمها التي استقبلتهم أمام باب الشقة ونظرات عينها قابلته بسهام اللوم حينما عادوا سويا أمام الناس دون خشية ، أرتبك مالك من الخجل بعد أن لم يجد جواباً ووضعا وجهه في الأرض ، فتلتفت نور إلى أمه تبادلها اللوم :

– ما أفعله هنا وهو ما أفعله من خلف ظهوركم

بنار الخوف ترد ألام :

– يا أبنتي أنا واثقة منكم .. لكن نحن نعيش في مجتمع يتحدث بما يراه

كالذي لا يملك شئ أجاب بتردد :

– أن شاء الله قريب ....

وكف عن الكلام وكأنه لم يستطيع تنفيذ وعده ، فوضع وجهه مره أخرى في الأرض وكأنه لا يلتمس لنفسه الأعذار .

فسألته الأم :

– متى ؟ وأنت في كل مرة تقول هذا .. مالك أعلم أن ليس بيدك شئ .. لذلك أسألك لأمتي ؟

أبتسم مالك من همه :

– أنا كل الذي انتظره فرصة

الأم :

– والصبر أوشك على النفاذ

التفت بوجهه مالك عنها فسألته الأم :

– لازلت تصدق حلمك

أجابت عنه نور بحدة :

– المهم أكون أنا الذي أصدقه .. ومالك لازال شاب أمامه العمر وأمامه الفرص

وكأنما الأعذار باتت كثيرة وكأنها سئمت منه بعد أن أغلقت عينيها قائلة :

- لو كانت نور مكان أبنه عمك... ماذا كنت أنت فاعل ؟

وجها مالك وجهه ناحية الأرض كالذي يشعر بالذنب ، فخاطبته في صادمة لهما :

- نور متقدم لها عريس

هارباً مالك كالذي لا يستطيع فعل شئ إلى الشقة ، فنظرت نور إلى أمها بلوم ، جعلت الأم تقدم مبرراً قائلة :

- من حقِ أخشى عليكِ

أجابتها بعصبية :

- إن كان عمري كله سيصبح في انتظار مالك .. سأحرص عليه وأنا لا اندم على فوات العمر.

تتركها نور وتدخل إلى غرفتها غاضبة، تغلق الباب خلفها لتمنع أي أحد أن يدخل عليها حياها وليست غرفتها .

تركتها نور غاضبة إلى غرفة نومها وأغلقت الباب من خلفها ، وكأنما تريد أن تمنع أي أحد أن يدخل عليها حياها وليست غرفتها . جالسة على سريرها أخذت دقائق قليلة رمت منها غضبها ثم همت بعد أن هدأت ، تكلم مالك على هاتفه المحمول ، الذي انتظر كثيراً حتى أجاب على المكالمة دون أن يتحدث ، تاركاً لها سباق الحديث :

- أعلم فيما تفكر فيه الآن .. لكن لم اقبل أن نكون ضحية .. وأن كنت تشعر بتأنيب ضميرك نحوى فعليك أن تتذكر هذا .. أن ظلمك لي .. هو أن تتخلى عن إنسانة تتنفس بوجودك جانبها .. وأرجوك أن لا تغضب من أمي .. هي لم تقصد .

وكأنما أنفاسه المجروحة أجابت :

- أعلم أنه من حقها ومن حقها أيضا أن تمل من علاقتنا... أذا كنت أنا قد سئمت من نفسي

واقفة نور قائلة كالتي تسد ريح الفراق من الاقتراب :

- لكنني عندي أمل فيك كبير وإنك في يوم ستصل لحلمك .. وسوف تحسدني عليك الناس

ابتسم مالك وكأنه استخف من نفسه :

- أنا !

أغمضت نور عينيها قليل ثم عادت تبعث الأمل مرة أخرى لروح أناهكاتها الحياة :

- لم يعد يهم الآن أن تصير نجم مشهور أو بائع في مخبر... أنا بأي حال سأكون راضية عن حياتي معك .. أنا أغنى الناس بك ومن غيرك أكون أفقر البشر .. حتى لو امتلكت هذه الدنيا .

أعادت بريق الأمل له كالتي مسحت الغبار من على الذهب ، وكأنما رمت له بذور جديدة يلقيها على أرض مستقبله ، يخطط فيها حياته من جديد بعد ما صنعت له الأمل من غزل إحساسها المستحيل .

قائلا :

- أنا سأحاول أبحث عن أي شركة مقاولات وأتقدم لخطبتك

- وكأنما ما أرادته سألته :

- وحلمك؟

وإنما تنازل عن كل أحلامه وأراد أن يثبت لها هذا قائلا وكأنما اقسم :

- أنتِ أهم حلم عندي الآن لا أتحمل ضياعه

أجابته :

- وأنا لا يهم لي إلا أنت

ما قاله جعلها في سعادة تكاد لا تصدقها وكأنما أضاء وجهها أكثر من نور الشمس قائلة :

- لن أترك الفرصة لأحد يأخذك مني .

* * *

حاول مالك التقدم لكثير من الشركات ولم يجدي سعيه ، وحصاده من الهم يزاد ، مرت أيام وليالي في البحث وكأنما يسير في صحراء باحثا عن بئر ماء . أتعبه الأمل الذي حينا يأتي يسلبه الزمن في الحال . أصبح وجهه عابس من حال كادا لا يطيقه

داخل المخبر يسير حاملاً على ظهره شكارة دقيق ، شعره ولحيته المغرقة بالدقيق الأبيض وكأنه في الستينيات من عمره . بعد أن رمى من على ظهره شكارة الدقيق ، رن هاتفه بمكالمة من أحد أكبر شركات الإنتاج الفني حتى يأتي للعمل مقابلة صوت أمام صاحب الشركة واللجنة الفنية .

أفرغ مالك من المكالمة وزاغت عينيه عن الهم إلى الأمل وكأنما رأى مصالحة الأيام له ، كأن صبر السنين ذاب كالثلج ووجهه العابس سقاه ندى الأمل وصار كالزهور في الربيع .

أراد أن لا يخبر أحدا عن هذه المقابلة التي أضاءت له الدنيا من حوله ، داخله يقين أن هذه الفرصة الحقيقة لباب ظهور حلمه لدنيا . استعد بكل ما يملك . استأذن من عمه الذي رفض اخبره ، ذهب لشركة وعندما علماً أنه سيقابل مدير الشركة الذي حلماً يوما من الأيام بمقابلته كادا لا يصدق نفسه ، أنه سوف يلتقي بالرجل الذي تعامل مع كل المطربين الكبار . جالساً مالك في انتظار دوره والصور المطربين تملآ الجدران من حوله وعينيه تجاه باب الدخول تعجبت ! من أن هذا الباب سيحدد مصيره بعد قليل ، داعياً في سره أن يكون باب النور وأن يصبح واحد صورته معلقة كهؤلاء المعلقين صوراهم على هذه الجدران .

يرى المتقدمين مثله على حاله وكأنما الجميع جالساً تحت قبة القلق ، وبعد أن مر الوقت بيه كادا أن يفقد أعصابه من نار الانتظار ، يخفق قلبه كلما يرى خروج المتقدمين مثله في حالة يرثي لها من الفشل ، قام واقفا من شدة الخوف على أعصابه وكأنما لا يستطيع التنفس . تذكر نور وكأنما كالذي أراد أن يعيد لقلبه الحياة . قام بالاتصال بنور ومن الخوف التي شعرت به ربت على قلبه قائلة :

- تعلم ما هو أول سبب جعلني أعجب بك .. هو صوتك العذب !

رأى مالك خروج متسابق والحزن يجر قدميه بثقل فأجاب وكأنما أرعده هذه الوجه العابس قائلا :

- لكني أشعر أنه الآن مكتوم

- لأنك لازلت تشعر بالخوف

خرج متسابق أخر من المكتب على وجهه أيضا الفشل ، فتنادى الجالسة على المكتب لـــ مالك أجابها بعد أن أنهى المكالمة مع نور :

- أدعو لي

قبل دخوله طلبت الجالسة على المكتب إغلاق هاتفه الذي حاول غلقه لكن تعثرت يده من القلق لا يستطيع إغلاق هاتفه ، فترك مالك الهاتف لها ، بعد أن أوقفه القلق قليل قبل طرق الباب ، سلم أمره ودخل لمقابلة صاحب الشركة واللجنة الفنية . سأله أحد الجالسين :

- أنت مالك

أجابه مالك فقط بتحريك رأسه مشيرا بنعم

- صاحب الشركة :

هل لديك أي سابقة عمل من قبل في شركة ؟

مالك :

- لا

صاحب الشركة :

- ما مؤهلك ؟

خافضاً صوته من القلق وكأنه أجابه هامساً :

- بكالوريوس هندسة

طلباً منه صاحب الشركة أعادة رفع صوته في الإجابة مرة أخرى ، فعدا مالك بالإجابة التي أدهشت صاحب الشركة :

- هندسة ! ولماذا ؟

ابتسم مالك وكأنه حاول مماطلة القلق حتى تغير وجهه من ملامح القلق قائلا :

- عمى استخسر درجاتي العالية أن أضيعه في أي كلية أخرى

صاحب الشركة :

- أبدا بالغناء

حينما استعد مالك أوقفه صاحب الشركة وطلباً منه غناء أغنية من الأغاني الشبابية الجديدة ، أنصدم مالك قليل ورفع عينيه يرجوا الخوف أن يتركه لدقائق . فرد عليه في الحال مالك أنه لا يستمع لصوت هذا المطرب

سأله عن السبب ومالك جوابه أن ما يقدمه هذا المطرب لا يشغل فكره وإحساسه ، وبين سؤال وجواب طلب منه صاحب الشركة ، أن يغنى ما يريده .

بدأ مالك بالغناء بمقطع من أغنية قديمة . وكأن قرار اللجنة كان مسبقاً ، قاطعوا تكملة غناءه وقاموا بتبادل النظرات بينهم ، كلاً منهم أعطى قراراه على الورق لصاحب الشركة ،مررت ثواني قليلة إلى أن سمع مالك القرار من صاحب الشركة :

- صوتك لم يصل إلى لي

رنين صوته المرتعد قال :

- ممكن أن تعطني فرصة أخرى !

وكأنما تجاهله صاحب الشركة:

- انتهت المقابلة .

مالك بذهول سأله :

- بما تقصد....؟

صاحب الشركة :

- هذا الأمر يعود إليك

كالذي اخشي السقوط من اعلي . سأله :

- ماذا تعنى؟

صاحب الشركة:

- الأمر متروك لك

مالك :

- أنك محق ! كان علي أن أتفرغ للهندسة

اتجه مالك إلى الباب كالمذبوح واقف لسؤال يراود به نفسه ربما ينقذه من الغرق ، بعد أن التفت سألهم :

– على أي أساس هنا يتم اختيار الفائز ؟

صاحب الشركة :

– الموهبة أولا .. ثم الحضور

وكأنما اشعر بالذل والانكسار ، فجاوب بابتسامه يرسل منها الهم أكثر من الحديث قائلا :

– أشكرك أنك أيقظتني من الغفلة .

خرج من الشركة ونبض قلبه وكأنما كالسكين يطعن صدره . لأول مرة لا يرى الخجل في دموعه ، تركها تصاحبه في عودته حتى يستيقظ من وهمه ، وكأنما كل هذه الدنيا التي أمامه كالزجاج المتحطم الذي سار عليه بقدميه الحافية .

أخذ معظم طريقه سيرا على الأقدام ، ليضع حلمه من ورائه حتى يفقد ظله وكأنما تركه لريح الندم تطوحه بعيد عن مستقبله المظلم ، تحصر على كل عمره الذي أضناه من يده، بين النجومية والشهرة الزائفة التي عشمته الدنيا فيه ، بعد ما كان يرى نفسه في يوم من الأيام مشهور صاحب جماهيرية وشعبية ، رأى الآن أنه مفقود وكأنه في أرض خالية من السماء والماء .

عاد إلى المخبز بعد أن رأى العم وجهه الكتوم المحمل بالحزن سأله :

– من أين أنت قادم ؟

ابتعد مالك عنه قليل ثم قال له :

– من شركة

تاركا العم إلى غرفة صغيرة بدلا ملابسه والعم من خلفه متعقبه . سأله :

– إلى متى ستظل تشقى بروحك خلف هذه الشركات ؟

حاول مالك إخفاء دموعه التي ظهرت على عينيه قائلا :

- هذه كانت أخر ليلة أطارد فيها هذا السراب

بعد أن ارتسمت على وجه العم ابتسامة إخفاءها عن مالك وكأنما صعب عليه . اقترب منه بعد ربت على كتف مالك ، طلباً منه الراحة هذه الليلة عن العمل والعودة للمترل كي يرتاح، فرفض مالك واستأذن العم في الحال أن يكمل عمله .

نور القلقة طوال الليل على مالك من تأخره في مكالمتها ،حاولت النوم لكن فزعة القلق اقوي من رغبتها في النوم . بعد هددها شبح القلق وسافرت الوساوس إلى مدن كثيرة ، قامت تهزم هذه القلق

تتسحب على مهل نور من شقتها تسأل عنه في شقته كالأم التي فقدت أبنها في زحمة الطرقات ، قابلتها دينا التي انشغلت عليه أكثر في عودة العم الذي يطمئنهم على مالك قائلا :

- أطمئنوا .. مالك في المخبز بدلا منى هذه الليلة

إلى أن عادت الراحة إلى نور ، وعلمت أنه لم يتم قبوله في شركة الإنتاج الفني ، انتظرت الصباح بفارغ الصبر حتى قابلته يبيع المخبوزات أمام المخبز ، فجاءته بلوم من خلفه قائلة :

- لم يهم أن أصبحت مهندسا أو مطربا أو ظلت هكذا .. سوى مالك .. لأنك في كل الأحوال سأتكون الإنسان الذي أحببته .. لكن كل الذي يفرق معي أن لا تكون ضعيفا

حدق مالك فيها ودرأ وجعه خلف كلامه:

- تقصدي أن لا يكون الإنسان موهوم

نور :

- أو لا يستطيع أن يدافع عن حياته

صاحاً مالك فيها :

- أدافع عن ما.. ! عن سراب .. لقد تعبت أنفاسي من الانتظار وليالي الصبر .. وخسارة كل هذه السنوات التي فقدتها من عمري وراء هذا الوهم .

وكأنما نور في شجار معه :

- وبهذا لم تخسر عمرك ؟

رفع إصبع يده في وجهه كالذي أراد عقابها قائلا :

- أنتي التي أخبرتني أن لازال العمر أمامي .. ومن حقي الآن أعوض ما تبقى منى

بصوت ناعم خافض أجابت وكأنما تكاد لا تصدق نفسها :

- نعم هذا ما قولته

لوح بيده وكأنما نفض من على كتفه حمل الحلم :

- لن أضيع عمري مرة أخرى على أيام تعرف الوهم أو حتى الحلم... دعيني أبدا بعيدا عن الأوهام التي أنتي الوحيدة تصدقيها.

صامت نور لثواني ثم رمقته بنظرة آسف غمرت ملامح وجهها وقالت :

- أنا لم أخدعك يوماً يا مالك أو أوهمك شئ مستحيل .. إنما كل ما قولته إليك .. كان إيمان منى على موهبتك .. وأنى مؤمنة أن أرزقنا عند الله وليس بين يد البشر... الله فقط الذي بيده أقدارنا .. يغير ضحكنا وحزننا بأمره .. حياتنا لا توجد بها شئ أسمه الصدف ولكنه القدر.. وأن كان لأحد ! سأكون أنا .

تتركه في مكانه كالورق في مهب الريح ، يكتفي فقط بالنظر عليها وهى تبعد عنه ، مشط يده على رأسه مبررا لنفسه قائلا :

- حرم أجعلها تضيع عمرها خلفي.

– ٢ –

جلس في عمق الليل مالك يتأمل حاله بين النجوم والسماء ، يرسم في حياته الجديدة بخطوط ليس فيها أضواء وشهرة ، بعيده عن كل ليلة كان جالساً فيها تحت القمر منذ بهر صوته يبهر كل من حوله ، في محاولة منه في إعادة تشكيل حياته بالقلم أحباره لا تكتب في مخططاته الغناء . وعند نور واقف القلم وكأنما جف القلم وطويت الصحف .

فخرج من أعماق الليل الباهت للإطراف النهار من شقته في ميعاد خروج نور لعملها ، التي عندما رأته واقفة لثانية ، سرقها الحنين لكن غلبها الكبرياء ، فأخذت خطئ الفراق ، استوقفها عند أول درج السلم سألها :

– ما الفرق بين الأحلام والأوهام ؟

فتركته مرة أخرى ، فطاردها بإجابة سؤاله :

– عندما يكون الحلم بعيد عن الإمكان .. يسمى وهم .

وعاد في اللحاق بها وبعد أن سابق خطواتها واقف أمامها ، فلتفت بوجهها عنه فقال لها :

– في كل خطوة أخذتها كان يستوقفني أشياء كثيرة لم تكن بإمكاني.. وكنت أكمل معتقداً أن صوتي في يوم سيصل للدنيا .. لكن عندما أذهب إلى أكبر شركة واقف أمام لجنه فنية تحكم أنني صوتي لا يؤهلني لكن مطربا .. أكيد لم أكن موهوب بل كنت موهوم

أجابته بعد أزالته وفسحت لها النزول :

– أنت صوتك حلو والزمن قادر على أن يكذبك أمامي

تجد صوت قدميه على الدرج توقف فتلتفت له ، رأت الدموع من عيناه تساقطت قال بعد أن نزل الدرج :

– انتهت كل الفرص من حياتي.. ولا أستطيع أن أنتج لنفسي مثلما يفعل المطربين الآن

وكأنما حزنه كان مبررا لمسامحته ، بعد ما كانت تهرب بكبريائها أوقفها حنانها قائلة :

– هذا لا يعطيك الحق أن تيأس

أجابها :

– لكنه أيقظني من غفلتي .. ولم يعد لي سبب المضي في هذا الدرب .. إلا أن أعود لشهادتي

بعد غيم طال في السماء وكادت تساقط الأمطار ، عادت الشمس لصافها وابتسمت نور ، فسألها بعد أن سنحت له الفرصة :

– لقد اكتفيت من الدنيا كلها بحبك

خاطبته بآس وعتاب :

– خائفة في يوم ما تتخلى عني كما تخليت عن حلمك وتراني وهم

وكأنما ظالمته فنظر بخوف على نفسه ، قبلها قائلا :

– لا أحد يضحى بروحه .. فأنتي الحياة التي أسعى لها

خرج مالك معها إلى الشارع بلا دموع وكأنما النهار والنور في قربها منه والليل والعذاب في غيابها عنه ، بدأت أنظار المارين تلفت لهم ، فعاجلته نور مسرعة :

– سأتجزأ اليوم على تأخيري

تركته بعد أربع خطوات ثم التفتت فقط برأسها له ، وجدته يحدق النظر إليها مبتسماً ، فتودعه بابتسامة اطمئن بها قلبه ، بأن الهوى لازال موصول والعشق على حاله وكأنها أبحرت به للسماء بين النجوم وكأنما جعلت ليومه أمل.

ذهب مالك للعمل بالمخبز ، وإن ساعات قليلة مرت إلا أنه تفاجأ بمكالمة التليفون ، جعلته جالساً بعيدا عن العمل ، متعجباً من حال الدنيا التي احتار في أمرها ، تم قبوله في شركة المقاولات التي اعتقد أنه رفضا منها . رسالة القدر الآن يعلم مضمونها بعد أن نظر متعمقاً فيها يلخص منها المضمون أن كل ما يريده سجن عنه ولابد الرحيل عن حلم تشوقت به روحه كثيراً ، لهذا السبب شعر بالحزن ، علماً أنه إنسان ليس مخيراَ أن يخطط حياته كما تمنى بل يتركها لما مكتوب .

أخبر عمه متأخرا وسط أولاد عمه . لكن العم الوحيد الذي زفه الخبر بالسعادة واللوم على تأخر مالك في أخبره . لكن رأى ابتسامة مالك الخفيفة الآسي، عينيه مليئة بالحزن ، سكوته في عدم الجواب أكبر دليل على أنه ليس سعيد بل بعيداً عن ابتسامته المزيفة ، فربت عمه على كتفه ، لكن وجدا من مالك سؤال موجه له كان يحتبسه طوال في العمر بين صدره :

– لماذا ظلت دائما ضد رغبتي في الغناء ؟ .. حتى أنك لم يوماً تعطني رأيك في صوتي .. إيجابا أو سالباً !

التفت عنه قائلا وهو يستعد للهروب :

– لأن هذه كانت وصية والدك أن تصبح مهندساً أو طبيباً .

لكنه خلف عينيه شواطئ أخرى تخفي أسرار كثيرة ، وقاما من بعدها هارباً قبل أن يتعمق مالك في أسئلة أخرى .

* * *

استلم مالك عمله في ترميم ملحق لأحدى الفنادق بمدينة شرم الشيخ ، ووفرا له الفندق المسكن بداخله، مر أول يوم له بصعوبة بالغة ، شعراً فيها بالغربة والبعد ولجأ لمكالمتهم جميعاً لينفس عن همه في سماع أحوالهم لكنه لم يخبرهم عن تعبه وإحساسه هنا بغربته ، حتى الابتسامة المزيفة رسمها

أثناء مكالمتهم ، لكن مع نور وكأنه كتاب مفتوح يقرأ له هو صفحاته يفتح كل جراحه . يختم معها كل ليلة مكالمة قبل نومه تصبره . حاول مالك الصمود والصبر وكل يوم يمر عليه كالتائه داخل مغارة مظلمة يسير ، تائه في معرفة ابسط أشياء العمل حتى في توجيه العمال .

أتى رئيسه في العمل كبير المهندسين (المهندس أسامة) الذي صبراً عليه كثيرا وتحمله لأسبوع فنهره في وجهه أمام العمال قائلا :

- كيف تخرجت من كلية الهندسة ؟

لم يستطيع الجواب مالك لذا تركه وكأنما عاتب نفسه ، أن حتى لقب مهندساً عليه أكبر منه وكأنما حقاً لا يستحقه

مضى الغروب أمام البحر وهو يفكر مع رحيل الشمس رحيله أيضا من هذا المكان لكنه لا يستطيع أن يأخذ هذه الخطوة سائلاً عقله :

- وحينا أعود ماذا سأقول لهم ؟

صعبت عليه نفسه وفضل الجلوس أمام البحر على الرمال ودمعه صار في ملمس يده ، قام يسير باحث عن شاطئ يرسي عليه . فبعد أن دخل الفندق رأى من خلف الزجاج طاهي المأكولات يجهز الخبز ، فستوقفه التفكير وسرقه اليأس ونظرا في الجهة الأخرى يرى طاهي أخر ، وكأنه وجدا البر الذي يرسى عليه . دخل المطعم إلى الطاهي يسأله عن فرصة عمل في الفندق خباز . فوجدا أن الفرصة متاحة لكن بعد أن يمر بالاختبارات ،

فأسرع مالك بتقدمه للوظيفة أمام المسئول عن التعيينات للمطعم . الذي سأله أولا عن مؤهله ، فأجابه مالك وهو ينظر الخشية :

- أنا خريج هندسة وأعمل هنا في ترميم مبنى الفندق

لابد أن كان يستعجب الرجل فسأله :

- ولم تترك عملك هنا ؟

فسأله مالك قبل أن يجيبه :

- ممكن هذا أن يمنع عملي هنا؟

الرجل في تعجب:

- الخبرة أهم شئ للعمل هنا .. ولكن هذا للفضول

وكأنما تعجباً مالك في نفسه أولا :

- الهندسة تحتاج للخبرة وأنا لا أمتلك إلا الخبرة في المخبوزات.

فبعد أن تعجب الرجل من أمر مالك وافق على تعينه ، فأسرع مالك إلى غرفته يكتب استقالته وكأنما كي لا يعطى فرصة في التفكير ، بعد أن رأى صورة عمه في عين هذا الرجل الذي يلؤم بعينيه على تصرفه .

كأنه يرى سكين يذبح به عمه فكف عن كتابة باقي الاستقالة ، شعر كالمذنب الذي أرتكب معصية ، يضع يده على رأسه من شدة ألم التفكير ، وبعداً قليل عن ورقة الاستقالة .

استلقي قليل على السرير وكأنما راقد على جمر نار ، وكأنما شعرت به نور تنجيه من هذا العبء من اتصالها التي أعادت ابتسامته قبل أن يجيبها ، وسألها ساخراً من نفسه :

- من في نظرك أفشل مهندس في مصر ؟

نور بعد ابتسامة خفيفة :

- أكيد إنسان لم أقابله في حياتي

فسخراً منها قائلاً :

- تريدي أن أعرفك عليه ؟

رفضت أولا بتحريك رأسها قائلة :

– لا أريد

مالك :

– أظن إنكِ قمتي بالاتصال برقم خطا

نور:

– أنا متأكدة من اتصالي... وأعلم أنني أكلم إنسان يمتلك الإصرار

مالك :

– وفي النهاية يفشل ويعود من الأول خباز يعمل في فرن ألي

سألته وهى تعلم الإجابة :

– تريد العودة يا مالك؟

مالك :

– لا أعلم

رافعة نور حاجبها بتكهن :

– أنت تريد ترك العمل يا مالك

فأخذا نظرة على الاستقالة التي لم تكمل كتابتها قائلاً :

– لا أستطيع التكيف مع العمل

نور :

– تذكر مني هذه الكلمة دائما يا مالك . عملك هنا محطة لابد من المرور عليها .. كي تصل لحلمك .. وحينما يأتي قدرك لا تتوهم أنه صدفة .. هذا سيكون حصاد مجهود سنوات أنت زرعته بصبرك .. لكن لكل قدر ميعاد وسبب

نزل حديثها على صدره كماء بارد يروى ظمأه قائلا :

- سأحاول مرة أخرى

نور بإصرار :

- وسوف تتعلم يا مالك .. ومتأكدة أيضا أن عيونك لم تزوغ هنا على النساء

أجابها بعد ابتسامة كان يبحث عنها :

- صورتك دائما حصني من جميع النساء .

خرج مالك من همه كما خرج من هذه الغرفة الضيقة ليجرى بخياله في الدنيا الذي أتى لها من جديد ولازال يتحدث معها في كل شئ ينطق عن إحساس نبض قلبه ، إلى أن وصل للحفلة مقامة بالفندق حول المسبح للمطرب مشهور ، ويجد رئيسه جالساً يستمع للمطرب ، فسألته نور على الصوت الصاخب الذي حال بينهم فرد عليها :

- الفندق هنا يقيم حفلة

لمحه رئيسه المهندس أسامة فلوح له أن يأتي يجلس معه ومعه نور على التليفون تسأله :

- سوف تسهر

سد أذنيه الأخرى الفارغة من الهاتف حتى سمعها جيدا بعد أن أعادت سؤالها قائلا :

- سأجلس قليلاً أتحدث مع المهندس المسئول عنى

قبل أن تغلق معه المكالمة بابتسامة تحمل الغيرة علي شفتيها :

- أتمنى أن لا تزوغ عينيك يمين ويسار

واقف مالك متبسم وكأنه هذه اللحظة أعطته قلم وورقه واستدعته ليرسم لوحة قائلا :

- لا أظن أن صورتك التي تملأ عيني تجعلني أرى غيرك

فوجدا مالك المكالمة انتهت من خجل أصاب شعور وحنين نور حب كادا أن يدوخها ، يلففها حول الدنيا في لحظة ، كما هو واقف ثواني مستمع بحلوة الشوق في قلبه .

ناد عليه مرة أخر المهندس أسامة الذي جلبا له كرسي حتى يجلس بجانبه ، ونظرا على مالك :

- أول مرة أرك تسهر خارج غرفتك

سد مالك أذنيه من صوت الموسيقى الصاخب وأجابه :

- كنت أحاول أستمتع قليل بالهواء

بنظرة تحمل الشفقة سأله المهندس أسامة :

- لازلت غاضباً منى ؟

نظر إليه مالك وصوت الموسيقى انخفض للتحضير المطرب الأغنية القادمة وكالأطفال حينما يطلبوا شئ :

- ممكن تساعدني حتى أتعلم منك

ابتسم المهندس أسامة على سذاجته قائلا :

- وأنت هنا لماذا !

مالك بنبرة تحمل الآسي :

- أتيت إلى هنا حتى اللوم الدنيا على طوال عناده لي

المهندس أسامة بلوم :

- الدنيا لا تعاند الضعفاء

مالك :

- لم يكن حلمي أو هدفي أن أصبح هنا

وعن حلمه الأخر سأله بتمهل ، فأجابه عليه مالك وهو يخشي التخيل :

- حلم أشبه بالكابوس

المهندس أسامة :

- وما هو الكابوس ؟

مالك بخوف وكأنما يخشي الاستهزاء :

- أن أغنى

تعجباً المهندس أسامة قائلا :

- أصبحت الكرة والغناء حلم كل شاب يبحث عن النجاح السريع ! مثل حلم كل شاب الآن أن يحصل في الثانوية على أعلى الدرجات .. ليلتحق بكلية عظيمة مثل الهندسة ويكن هنا في مكانك

بحركة الرأس عينها التي تعجب بها المهندس أسامة فعلها مالك :

- ماذا تعنى !

أجابه بابتسامة وكأنه يضعها على شفتيه بين كل الحروف التي يخرجها له :

- أعني أنك في النهاية امتلكت حلم يبحث عنه أيضا شباب كثيرون

عاد صوت الموسيقى الصاخب مع صوت المطرب يغزوا المكان ، فنظروا الاثنين على المطرب ثم عاود بسؤال :

- صوتك حلو ولا مثل هذا الذي يغنى ؟

أجاب بسخرية :

- على الأقل أستطاع أن يصل بصوته للجمهور !

صوت المطرب والموسيقى لا يجعلهم يسمعوا بعضهم بوضوح فقام المهندس أسامة وهو أخذ بيده مالك يشده ، ابتعدوا عن صوت الموسيقى متجهين إلى داخل الغرف ، قائلا :

- حزنك الذي يملأ عينيك يدل على أنك صاحب موهبة

ظهر على وجه مالك التأثر الشديد وأجاب بأنفاس مكتوبة :

- في نظر أقرب الناس المحيطين بي فقط .. لكن في نظر المنتجين ! ما كنت أكن هنا الآن

المهندس أسامة وكأنما أشفق عليه :

- من الصعب تتفق الناس كلها على أحد .. وحظك أنت وقع في البشر الذين يختلفوا معك .. بدليل أنك ترى وتسمع أصوات أشبه بأصوات السيارات

مالك :

- أرجو أن لا تحدثني مرة أخرى عن هذا الأمر

اعترض المهندس أسامه بلامحه قبل أن يواجه لومه بحكمته :

- تعرف أن الحلم مثل أيام الدراسة يحتاج لصبر .. كلما تتعب كلما تحصد أكثر.. بمعنى لو اجتهدت خمسه سنوات تحصل على الابتدائية ولو كملت ثلاث سنوات أخرى تحصل على الشهادة الإعدادية وهكذا وهكذا .. كلما كبر حلمك كبر معه الصبر أكثر .. الشهرة والنجاح أكثر الطرق التي تحتاج الصبر ويحتاجها النفس الطويل

واقف المهندس أسامة ناظراً في عيناه وكأنه يقف بعمر مالك كله ، يضع يده فوق كتفه قائلا :

- ومهما كنت تعبت في حياتك فأنت تكذب على عمرك .. لأنك لازلت شاب صغير .. أمامك ملايين المحاولات التي لم تسعى إليها .. تصبح على خير

تاركه بمفرده في مكانه لا يتحرك فلمح مالك ضي القمر فنظر إليه غاضباً وكأنما يعاتب أحلامه الكثيرة الوهمية التي طافت من حوله كالنجوم :

– الذي قال أن الحفاظ على القمة أصعب من الوصول إليه فأنه كان يكذب .. لأنه صعد للنجاح .

دخل إلى غرفته بدأ بعدها يوم جديد ، يوم بعيد عن دنيا الأحلام التي غسل بها وجهه ونفض عنه الخيال ، بعد أن ثبت قدميه أرض الواقع . بدا الدخول في العمل وفهم طبيعته ليكسر حاجز النحس الذي يشعر برفقته وكأنه ظله طوال فترة حياته . وكل يوم تحركه الأيام إلى الأمام بخطوة قليلة لكنه عنها راضى . وبعد أن أراد أن يقدم استقالته عاد عن القرار . واعتذر للمسئول عن التوظيف داخل المطعم الذي وجدا منه الترحاب من مواصلة عمله وشجعه . وكأنما الأيام هي التي أرادت أن يفرد شراع في تجاه أخر يدفعه إلى قدر أخر .

* * *

يبقى الحال في مكانه كثبات الجبال ومرت الأيام كالريح ، هنا الحياة والزمن دوار لا يتوقفان ، ما يأتي يصبح في لمحه ذكرى وما رحل يبقى في العين كدمعة مطر . ولازلت الأحلام واقفة على باب الأمل لتلحق بالأيام القادمة وكأن ما يزرع من حلم يحصد الصبر لغدا . تساقطت الدموع كثيراً في مرور شريط العمر ولم يتذوق اللسان منه حلوة الأيام . هذا ما عليه داخل قصر تعمل فيه امرأة مربية اقتربت من سن الخمسين ملامح وجهها ساكنة ، تشعر أنها دافئة ، لكن بداخلها هم الدنيا لكنها ساكتة .

أنهت صلاتها وهى تدعى بهمس شفتيها ودموع عينيها نزيف على وجهها ، تنطق الكلمات داخلها عاجز اللسان على إخراجها .

خرجت من الغرفة على صوت موسيقى صاخب ، اقتربت من الصوت الذي يخرج من الغرفة ، طرقت الباب ودخلت . وجدت (مي) فتاه مدللة في سن الجامعة ترقص وهى تنهى من تبديل ملابسها ، اندهشت المربية من عادتها التي تربت عليها ، ثم اقتربت منها تطلب خفض الصوت

قبل أن يستيقظ والديها وينهروها ، فدخل عليهن ما كانت تحذرها منها ، والدها في فمه سيجار قائلا بحدة :

- الم ننتهي من هذه العادة السيئة ؟

وكأن الحديث لم يكن موجه إليها ، وضعت هاتفها المحمول في حقيبة يدها ولمت أغراضها ثم اتجهت إليه قائلة :

- أكيد ليست سيئة بدرجة التدخين

ابتسمت المربية وخفضت الصوت ، وأعادت مي الصوت الصاخب لما كان بعد خروج والدها ، فهربت المربية من الغرفة مسرعة وهى تسد في أذنيها . ذاهبة إلى صاحبه القصر الطبيبة (هدى) استأذنتها للخروج ، لعادة اعتادت عليها كل فترة . جالسة المربية في حديقة القصر سارحة مع حالها في انتظار مي حتى تقلها بسيارتها . فتفيق على صوت محرك السيارة ، قامت مسرعة تتطلب من مي على استحياء أن تقلها معها في الطريق

فتفيق على صوت محرك سيارة (مي) يدور ، تقوم بسرعة إليها تتطلب منها على استحياء أن تقلها معها في الطريق .

أشارت لها مي أن تصعد السيارة وتركب في الكرسي الخلفي ، ذهبت المربية لحى السيدة زينب تبحث هناك عن شئ تفتقده منذ سنوات وسنوات ، مع أنها تعلم أنها لا تجده ، لكنها تجرى وراء أمل يبعث لها الروح .

قابلها احد الجيران الذي واقفا مصافحها ، وقائما جواب كل مرة قبل أن تسأله متأسف على حالها :

- لم يعد أحد

ابتسمت الابتسامة التي اعتادت عليها في كل مرة تأتى فيها هنا ، وهى ابتسامة بكت منها شفتيها قبل العيون . أخذت حالها المكسور ، تسير في الشارع وصوت أذان الظهر من مسجد السيدة

زينب ناد عليها . لا تحرم نفسها من الوجود في هذا البيت الذي يضمها بحنانه . جالست بعد الصلاة تبكى وهى تشكو قائلة:

- يا ألهي أراه قبل أن أموت

وصوت طفل في أذنيها يصرخ ، فتلتفت فترى أم تصلى وبجانبها طفلها يبكى . اقتربت بحنان الأم تضم الطفل إلى صدرها تربت عليه تلهيه عن صراخه ، فمن شعورها بحضن الطفل بين ذراعيها استغرقت في الحنان مغمضة عينيها وكأنها تحلم ، ففتحت عينيها تجد أم الطفل أمامها ممددا ذراعيها تطلب منها طفلها ، وأعطتاها طفلها كأنها تشعر بالإحراج التي شعرت بسرقة شئ ليس من حقها وتقوم ترجع إلى القصر.

ومع عودتها عاد أيضا مالك من شرم الشيخ في أجازة قصيرة لكنها مأمورية من الشركة إلى الشركة الأم بالقاهرة ، لم يخبر أحد بعودته ذاهباً مباشرة إلى مكان عمل نور منتظرها في الخارج وعندما يرها خرجت مع زميلتها شعر فعلاً بعودته . أخذ نفس عميق أحس فيه بالحياة ، كالجسد الذي التقى بروحه بعد غيبوبة طويلة . انسحب بهدوء خلفها وهى لا تدرى به ، حدثها على هاتفها المحمول . سألها:

- ماذا تفعلي لو ألتفتي خلفك ورأيتني ؟

حركت كتفيها للأعلى وهى تستنكر بأهداب عينيها :

- أكيد أنا لستُ بهذه السذاجة

تلاعب بها :

- تسمح لي أحدث زميلتك

اندهشت نور تتلفت خلفها ، فتخبأ منها فعادت نور مبتسمة على سذاجتها ملتفة لطريقها وكأنها لم تلفت قائلة :

- من الممكن أسهل عليك الأمر وأجعلك تحدثها دون كل هذه الألاعيب

بجانبها زميلتها مندهشة تنظر خلفها فيضيع سر اندهاشها عندما رأت مالك ، فتبسم بغمزه عينيه لتخفي سره قليلاً وكأنها لم تره ، بعد أن رفع مالك إصبع يده أن لا تفضح أمره ، وهو لازال يحدث نور عن لون ملبسها تسرع نور مندهشة تسأله :

– ميعاد انتهاء دوامي وأنت تعلمه .. لكن من أين علمت لون ملابسي ؟ ... ربما من دينا ابنة عمك

ابتسامة سخرية منه :

– لم يكن من دينا بل منك أنتِ... وربما لو نظرتي خلفك لأضاع سر اندهاشك

وكأنها أذكى من أنها تصدقه :

– لم التفت

أنهي مالك المكالمة فجأة وهى تقول :

– الو .. الو

أجابها بصوت مرتفع :

– عفوا لقد نفذ الرصيد

واقفة نور تستوعب ما سمعته فلتفت إلى زميلتها التي أجابت على عينيها المذهولتين بابتسامة خفيفة أنه خلفها ، فاتجهت خلفها على مهل في اقتراب مالك منها قائلا :

– لا أعلم ماذا أفعل حتى تصدقي

من شدة اندهاشها يضيع منها الجواب ويتوه عنها الكلام وكأنها لا تصدق أنه معها ، لكن عند مالك كتاب ينتشر حروفه :

– أنا لازلت لا أعلم لماذا أتيت إلى هنا .. رغم أنني مرهق ومتعب

لازلت بينهم زميلتها واقفة لكنها بهدوء انسحبت ، دون استأذن أو أحد يشعر بها وبعد أن استوعبت نور الموقف المفاجئ . سألته :

– لماذا عدت؟

أدعى مالك ألاندهاش متظاهراً به :

– نعم !

أجابت مسرعة قبل أن يسوء ظنه قائلة :

– أقصد لماذا عدت ! أأ.....

أشار لها أن تكف عن الكلام قائلا :

– كفي تلطيش في الماء لقد وصلتي للبر .. أنا هنا في مأمورية خاصة بالشركة وسوف أعد في الغد .. ولهذا السبب أتيت إلى هنا مسرعاً.. لأنني اشتقت إليكِ

تسير نور تدارى خجلها من كل كلمة حب تسمعها ، فنظر مالك على نصف وجهها الأيمن ثم التفت أمامه يحكى لها عن كل لحظة مرت به في مدينة شرم الشيخ ، فيجدوا أنفسهم تحت ضي الليل يسيروا في الشارع دون وقوف ، لا يدركوا الوقت ولا يألموا عليه وكأن لحظة مرت بينهم ، ردت عليه بابتسامة لكنها بها شئ من اللوم :

– لماذا لا ننتظر حتى نحتفل بعيد ميلادك

قرب مالك يده من يدها محاولاً لمسها ، بعدت يدها عنه لكن لا يبعد قلبه عنها قائلا :

– أنني أولد من جديد كلما أكون معكِ

فأتت لكي يعبروا الطريق فنظر مالك لها كخشية الأب على طفله قائلا :

– ممكن أأخذ يدك لأساعدك في عبور الطريق

تلاعبت به بابتسامة وكأنما تفتح له الطريق ، واتي كي يمسك يدها ت، فعبرت الطريق قبله وكأنها أجابت عليه ، فحاول أن يعبر خلفها لكن استوقفته السيارات التي تمر أمامه بسرعة . تجاوز عبور الطريق بعدها وهى ناظرة إليه تضحك عليه فأجاب وهو يسخر من نفسه :

- أنا الذي أحتاج من يساعدني

فتسير بجانب الرصيف وهو بجانبها يسألها وكأنما يلومها :

- لازلت لم تثقي في !

نظرت نور في الأرض وبكلمات مقطعة من شدة مرورها على إحساسها الدبلان من الخجل أجابت : ـــ

- أنا لا أشعر بالأمان إلا في وجودك معي ..

رفعت عينيها في عينيه :

- لكن لا أحب أن أفعل شي أندم عليه وخاصة معك أنت .. أرجوك لا تغضب

تكمل سيرها بجانب الطريق وهو بجانبها يشعر بالسعادة كلها يرد عليها بمداعبة :

- لن أكون غاضبا أن أمسك بيدك

ضربته بحقيبة يدها على ذراعه فيقف معلقاً :

- أقول يدك وليست حقيبتك

أكمل بجانبها السير يسألها وهو لغة السخرية ينهج طريقها :

- الم ترى حال الحب بين العشاق ؟

أجابت وهى تخفي الابتسامة :

- لا .. وعلمت أن أغلب علاقتهم انتهت بالفشل

أعاد عليها السؤال :

- أعتقد أنكِ تشاهدي الأفلام والمسلسلات

بقت على سر اختفاء ابتسامتها وقالت :

- استمع فقط للبرامج الحوارية

وقف مالك وهى لازلت تسير فتقف حينما شعرت أنها فقدت ظلها ، نظرت إليه وعادت تسأله عن وقوفه المفاجئ ، نظر لها باندهاش كالطفل الذي يخشي العقاب قائلا :

- أخاف أقول فيما أفكر؟ تغضبي كـــعادتك

ظهرت ابتسامتها الحنون وكأنها تعطيه الآمان :

- تحدث واعدك أنني لم أغضب

مالك :

- أنه حلم وليس تفكير؟

تعمقت النظر في عينيه وكأنها تبحث عن حلمه :

- بما تحلم ؟

حدثها وكأنه يحدث نفسه من أعماق إحساسه ، عندما يتخيلها ويسرقه الشوق لعالمها ، وكأنما رسمها في أغنية من حنين أشواقه :

أحلم بقبلتك في الصباح والمساء .. كلما أغدو أو أأتى ...

كلما قابلتك بسب ودون .. حبيبتي كلما أمسي واضحي .. حينما احزن وافرح ..

احلم بجزيرة بعيدة عن انسٍ وجان .. يكون فيه عشقاً هو ثالثاً ..

نهرها من حبنا يسقى عطشنا ووروردنا .. وأيامنا ولياليا

يا عيون أضاءت القمر بين السماء والأرض .. وخجلت من سحرها الكواكب والنجوم

يا امرأة غارت منها الدنيا ونادت تشكو .. لماذا جعلتني لا أسوا ثمنا في غيابها وفراقها

وكأنني رخصيه .. من أنتِ .. لولا عشقها لا أصبحت بل ثمن ..

ثم نادتك مرة أخرى .. رفقاً بمن أحبك .. فقلبه لم يسعني عشقاً .. يا غالية ..

يا أغلا من الوجود والكون وأنا .. حبيبتي أحلم بحضنك يكون لي خمسة ولا أكثر ..

أولهماً : أمُ .. أكون فيه طفلك .. أنام على صدره وأحس فيه ببراءتي ..

أحس بخوفك ولهفتك .. وعتابك ولومك .. وحنانك ودفك

وثانياً : صديقاً .. أرمي فيه أسراري .. يكون ملجأ همومي وأحزاني ..

حتى أنه يسع شكواي .. حتى لو كانت من حبيبتي أنتِ ..

وثالثاً : حبيبتي وطفلتي وأجمل امرأة أغازلها .. وبين ذراعي أراقصها على لحن من الحاني ..

أنتِ الدنيا والموت والحياة .. كل نساء ماتت في عيني .. حينما أوريتني عشقك

رابعاً : وطني وداري وبيتي .. الغربة عنك وكأنني بلا مأوى أو أرض أو سماء ..

وكأنني إنسان بلا كيان بلا حدود .. مهدد بالهلاك .. كل مكان دونك .. نار . برد ..

أنتِ الجنة والروح .. والأهل والصحاب .. والعمر والحياة

وأخيرا : أحلم بعمري ينتهي وأنا بين أحضانك .. تكن أخر عين أراها هي عينيكِ ..

وأنا على كتفك فوق صدرك .

– ٣ –

مر أسبوع بعد عودة مالك شرم الشيخ في غرفته مستريح، أتي عليه فكر كل ليلة ، يحدثه عن ظروفه يرى ارتباطه (بـــــنور) على حسب الواقع بعيد ، حاول الهروب من النوم لكن طارده شبح التفكير، فينقذه من هذا اليم مكالمة المهندس أسامه ، طلباً منه السهر معه الليلة ، فلبى مالك الدعوة على الفور. خرج لسهر مع المهندس أسامة أمام أنغام الموسيقى ومعهم صاحب القرية السياحية الذي لأول مرة كان يتعرف عليه مالك ، ورجل أخر كان الصمت يسكن ملامحه ، تفاجئ مالك بإلحاح من المهندس أسامه أن يصعد المسرح ويغنى ، فأبتسم مالك بالرفض بل وإنه يصر ، لكن رغبة المهندس أسامة أقوى منه وكأنه سأؤمه :

– هذا مقابل ما حصلت عليه حينما طلبت مأمورية السفر ولم أرفض

وكان معه صاحب القرية السياحية على نفس الطلب ، لكن الرجل الأخر لازال في الصمت ساكناً ، فنظر مالك حوله وجدا أكثر المستمعين أجانب ، وكأنما خشي على سمعة السياحة فرد عليه صاحب القرية السياحية :

– أنك سوف تغنى لنا نحن... وأنا المسئول عن هذا القرار هيا

سلم مالك أمره لرغبتهم وصعد المسرح . وقف ثواني بعيد عن الميكرفون يجمع نفسه قبل أن يختار الأغنية مع الفرقة الموسيقية ، وبدا بلحظة خوف في الغناء بأغنية من الطرب القديم ، لكن الخوف انفجر إلى شجن حينما غني وكأنه يغرد في أذان من يسمعه ، التفت بإحساسه قلوب الأجانب التي تنتبه له ، والدقائق الذي كأن ينتويها مالك في نفسه للغناء ولا يتخطها ، أبحره للعمق ومرت دقائق أخرى والوقت يمر وكل من سمعه يرميه بموج أكبر ليبقى أطول. يغرد بتصفيق من وقت لأخر . انتهي مالك وكاد لم يصدق نفسه من أعجاب الناس به ، خاصة من المهندس أسامة الذي نظر بكل إعجاب إلى صاحب القرية السياحية منتظر رائيه فنظر إلى مالك بإبداع :

– أنت صوت حقيقي هائل

لكن انتظر مالك رأى المهندس أسامة . فسأله :

- كنت أصلح للغناء

أشار له بالجلوس فأرى مالك تبادل النظر بين المهندس أسامة وصاحب القرية السياحية وكأنهم يتعازمون بمن يبدأ الكلام والرجل الأخر لازال على صمته، يبدأ هو قائلا المهندس أسامة:

- أنا عملت أن مستر أسعد ينوي افتتاح شركة أنتاج فني .. وانتظرته حتى عاد وطلبت منه أن يستمع لصوتك

أجاب عن نفسه صاحب القرية السياحية :

- يجمعنا أنا والمهندس أسامة صداقة كبيرة .. لذلك قررت أسمعك .. ولو كان لم يعجبني صوتك ما كان صار بيننا هذا الحديث الآن .

أفرج الرجل الأخر عن صمته وسأله :

- أخبرنا المهندس أسامه أنك حاولت كثيراً التقدم لشركات إنتاج ولم تفلح

أجاب عنه المهندس أسامة :

- تقصد أنه لم يقدره أحد .. مالك موهبة عظيمة .. أقدم إليك يا مالك أستاذ خالد مدير شركة الإنتاج الفني التي يؤسسها مستر أسعد

ابتسم مالك وكأنه تاه يبحث عن سبيل :

- لم أعد أفهم شئ !!

أجابه في الحال المهندس أسامة :

- الفرصة التي طالما انتظرتها أمامك الآن

مازال مالك ينبض داخله شعور بالوهم :

- ماذا تعنى !

صاحب القرية السياحية قائلا :

- نعنى أنك من الغد ستكون في مكتبي لإمضاء العقد في شركتنا الجديدة

خشي مالك أن يصدق ما سمعه، فقد سئما من هذا الحلم أن يصبح حقيقة ي، رأى وكأنهم يمزحوا به واقف صاحب القرية السياحية وكأنه أشفق عليه :

- قوم معي الآن نمضى العقد

فوقف المهندس أسامة إلا مالك فنظر إليهم وعينيه مذهولتين ، فشده من يده المهندس أسامة :

- ستنتظر هنا كثير

ومدير الشركة جالساً وكأنما لم يعجبه الحال ، فقام معهم بعد أن شبه أمره مستر أسعد بالقيام . أبتلع مالك في ريقه يتذوق حلوت الأيام المرة ، ودخل معهم المكتب وكأنه لا يصدق أن الدنيا القاسية حنت عليه بكل هذا الاستعجال من الحنان .

بدأ مدير الشركة الفنية بالحديث بعد الجلوس في المكتب :

- لم تحاول من قبل التقدم للبرامج مسابقات الأغاني

اتجه مالك بالنظر إلى المهندس أسامة الذي لم يعجبه حال هذا الرجل من البداية . سأله على مضض :

- وهذا سيفرق معك في شي ؟

أستاذ خالد بعد أن فتح عينيه قائلا :

- سيتقدم مالك غدا لتقدم في برنامج مسابقات الأغاني (ستار الشرق) البرنامج يعد من أهم البرامج في الوطن العربي .. بعد نجاح موسمه الأول .. وسوف يساعدنا في تقديم مالك للجمهور بشكل أسرع وأكبر انتشار

وقبل اعتراض صاحب القرية قاطعه أستاذ خالد :

- أنا لم يفرق معي أن يصل مالك لنهايات ويحصل على لقب (ستار الشرق) .. أكثر ما يهم الآن أن يعرفه الجمهور ويتعرف عليه بشكل أسرع .. ثم أيضا يهمني نجاح الشركة والتسويق بأقل تكلفة

ابتسم مالك بهم وكأنما يعرف حظه . فسأله :

- وأن فشلت في القبول بالبرنامج ؟

قاطع مستر أسعد إجابة أستاذ خالد التي كانت سوف تصدم مالك قائلا :

- لقد أعجبني صوتك بشدة .. ولذلك سوف أمضي معك عقد الشركة الآن ولن أنتظر للغد

وكأنما فرض مالك على أستاذ خالد حينما طلب منه الآن تجهيز عقد مالك ، فبعد أن أخرج العقد فمنعه المهندس أسامة من الإمضاء بعد ما أخذ مالك القلم لتوقيع مبرراً :

- أقرا العقد

أخذ المهندس أسامه العقد قراءه بدلاً عنه ، فنظر إلى صاحب القرية السياحية ناقشه على صيغة العقد التي لم تعجبه ، وكأنما سكين ذبح في عنق مالك الذي خشي من عدم إبرام العقد ، وكأنما حينما نظرا له أستعجله بنظرات عينيه الراضية والمتخوفة من عدم توقيع العقد . واقف مستر أسعد وبدأ عليه ملامح الاعتراض ، فعلم مالك النهاية التي في كل مرة تبدأ قبل البداية . وقام معه أستاذ خالد قائلا :

- هذا أفضل عرض ممكن أن يحصل عليه مالك الآن

لكن في هذه الليلة خاب فيه ظنه وتعجل له حظه ، عاد الجلوس مرة أخرى مستر أسعد متفاوضا من جديد وقدما عرض أخر وافق عليه المهندس أسامة ، حاول الاعتراض أستاذ خالد لكن تقدمه مالك قائلا :

- أنا انتظرت عمري كله منتظر فرصة أقل من هذا بكثير .. حتى لو أنني كنت أمتلك المال لكنت أنفقته كله حتى أتمكن من تحقيق حلمي .. لا يهمنى إلا النجاح .. وأضع كما تشاء من الشرط ا الجزائي .. أنا لا يوم أفكر أن أترك هذه الشركة .. إلا مقابل شئ واحد ؟

رد ساخراً منه أستاذ خالد :

- قال هذا الحديث من قبلك فنانين كثيرين

تجاهله مستر أسعد وأكمل حديثه مع مالك فسأله عن ما يريده ، فقال وكأنه يترجوه :

- أن تقدر كل خطوة من نجاحي

قاماً سأله أستاذ خالد :

- وأن فشلت ؟

أجابه مالك بعد أخذ لحة من صبر الحياة التي أعتادا عليها :

- سيكون هذا نصيبي وسوف أشكركم حينها على منحكم هذه الفرصة

فما كان من مستر أسعد غير أن قام بابتسامة وكأنه لبي ما تمناه ، فوقع على وجه مالك أمر أخر أراد إضافته للعقد ، لكن قام متهجما عليه بحدة أستاذ خالد :

- هذا كثير

فنظر مالك إلى المهندس أسامة فظن أنه يريد الاستنجاد به ، فسأله المهندس أسامه :

- بما تريد أضافته يا مالك

نظر مالك إلى المهندس أسامة حامل على وجهه رسالة :

- الإضافة في الاسم فقط ... ممكن يكن أسمى الفني " مالك أسامة "

رد مستر أسعد :

- ما أسمعه منك فهذا دليل على وفائك

ربت على كتفه المهندس أسامة وكأنما يشكره قائلا :

- حينما تصبح فنان مشهور لا تنساني

وكأنما أيقظ مالك نفسه إذ غدر به الزمن وأنساه :

- أن نسيت أنا ! سيذكرني الزمن ولن ينساه الجمهور

أستاذ خالد على مضض :

- سنسافر أنا وأنت في الغد للعمل مقابلة البرنامج .. وبعدها سنقوم بتسجيل أغنية إليك إلى أن صورها فيديو كليب

قاماً مالك بمعانقة المهندس أسامة قائلا :

- من صعب أن أجد كلمة شكر تحمل إليك المعنى الذي أدركه الآن

ولازال العناق بينهم قبل أن يبتعد عنه قائلا له المهندس أسامة :

- أنت فعلتها للتو يا مالك

خرج مالك من المكتب والفجر أوشك على الصحيان وكأنه يعلن ببزوغه شروق مستقبله ، يسير مالك أمام البحر ينظر إلى العقد والشيك ، جلس على الرمل ليعيش اللحظة الذي عاشها كثيرا في الخيال ، حدث الدنيا بعينيه ليخرج من الخيال لواقع الحياة بـــ مالك الذي طالما انتظره من الأيام :

- كنت قادم لهنا حتى أكتب نهايتي وأنا لا اعلم أنني أتيت لأبدا .. سبحان الله في توزيع الأرزاق

بسط جسده على الرمل مستلقي وعينيه تحت النجوم تتلألأ وصوت الطيور تغرد وتحلق فوق البحر وخلف ظهر السماء الجبال رأى إبداع الله ، تمنى أيضا أن يكون أمام الناس في هذه الصورة .

تذكر نور وأخذه الحنين ليحملها بشرى بزوغ الأحلام . لكن سرقه أحساس في الحال أن لا يخبر أحد مبرراَ أنهم قد سئموا من الوعود الكاذبة ، فقرر أخبارهم وهو واقف على سلم النجاح ، لكن الخوف يعود مشرقاً يكسر فرحته من الخوف وكأنما يخشي من تحقيق الحلم حتى نظر معاتباً للقمر :

- متى سأصل للغد ؟

استعد مالك لبداية مشوار عمره ، فصعب عليه وجوده في مصر وهو ممتنع عن روية أهله ونور التي ذهب إليها مختلس النظر . يراها كالجاسوس قبل ميعاده مع أستاذ خالد للذهاب إلى الفندق الذي يقيم اختبارات برنامج مسابقات الأغاني ، رآها من بعيد لبعيد وهى تغادر عملها مع زميلتها ، لوح بقلبه وعينيه عليها ، متحمل وعده القاسي وصابر عليه ، كل الذي يستطيع أن يفعله يسمع صوتها، يقوم بمكالمتها على هاتفها المحمول ، وبتنهيده عميقة سألها :

- ماذا تفعلي أن وجدتني خلفك

صدقته ونظرت بلهفه خلفها تسأله :

- أين أنت؟

ركن بظهره على الحائط، يقوى على صبره قائلا :

- أقصد بين خيالك

وكأنها تسخر من بركان إحساسها بعد ألتفتها عليه :

- خسارة .. لقد صدقتك

غمض مالك عينيه وكأنه شعر بالذنب فاعتذر بآسي ، فابتسمت نور وكأنه لم ترى سبب لأعذره وسألته حاول أخبارها بالحقيقة وبين نفسه حوار ثائر بأهداب عينيه المرتجفة تمنعه ، مما لفت صمته انتباه نور وكأنها تنادى :

- مالك .. مالك

أجابها:

- معكِ

أحست من صوته بشي جديد عليها لا تفهمه فسألته :

- ما بك يا مالك ؟

كتم بين أضلوعه خوفه وقلقه واشتياقه وحنينه وبابتسامة مزيفة قال :

- أرادت أن أخبرك إن الأيام التي تجمعنا من الاقتراب سويا هانت .

انتهى مالك مكالمته الأخرى مع أستاذ خالد الذي استعجل قدومه بعصبية على تأخيره ، تحمل مالك عصبيته ، وتقابل معه في الفندق بعد أن قاماً بالتوصية لــ مالك ولكنها توصية قاسية ، لان أغلب من يجلسوا على كراسي الاختبار من الفنانين يربطهم علاقة صداقة مع أستاذ خالد ، طلب منهم عدم الرأفة معه والتعامل بقسوة مع صوته وكأنما يدبر له مكيدة .

من أول مرحلة في هذا البرنامج أن المتسابق يغنى من خلف حاجز ولا يظهر صورته ولا حتى أسمه أو مدينته للحكام أو الجمهور . ويبقى مجهول إلى أن يتم قبوله فينكشف عنه الستار .

وأيضا من شروط المسابقة قبل أن يدخل المتسابق لتأدية الاختبار ، يختار من احد الحكام الأربعة واحداً منهم يكون هو صاحب القرار في صوت المتسابق .

هنا المتسابق بعد قبوله يكون في فريق هذا الحكم وإن لم ينجح ممكن أحد من الحكام الآخرين أن يأخذ هذا المتسابق . ويقوم بعدها مرة أخرى بتأدية الاختبار ضمن المتسابقين الذين اختاروا هذا الحكم . وتمسي المرحلة الأولى (الغرفة المظلمة)

طلب أستاذ خالد من مالك أسم حكم أخر ليكون في فريقه إذ تم قبوله ، لكن عاند مالك واختار أسم آخر وأصر عليه وكأنما افسد مكيدة أستاذ خالد ، فقام بتهديده قائلا :

– لا تنسي أن مستقبلك كله واقف على هذه اللحظة

وكأنها لم يعد شئ يفرق مع مالك كثير :

– ولأن مستقبلي يقف على هذه اللحظة .. فأنا اخترت من يقدر صوتي

استعجلوا النداء على رقم مالك ليقف قليل مع الفرقة الموسيقية يقوم سريعاً بالتدريب على الأغنية التي سوف يؤديها مالك . مرت ساعة وقبل دخوله قام أستاذ خالد مرة أخرى على باب دخوله الأستوديو بتهديده :

– تذكر أنك أنت الذي اخترت ؟

وكأنما مالك لم يفرق معه شئ كالذي سئما من الحياة تركه بعد نظرة تحدى تبادلتها أطراف العينين دون رد ، دخل يقف في غرفة أستوديو لوحده وكأنما يغنى لنفسه ، وصوت الموسيقى التي سيغنيها يأتيه من جانب الحكام ، أخذ نفس عميق وقام بالغناء وكأنما صوته غازل إحساس الحكام وحتى الجمهور الجالس خلف كراسي الحكام خلال الدقيقتان المسموح به تفاعل الكل معه .

أطلق الحكم الذي اختاره إشارة رفع الستار عنه لنجاحه ، فوجدا مالك نور الأستوديو كله مسلط عليه وسط تصفيق الحكام الأربع الحار والجمهور ، الحكم الذي اختاره مالك الفنان والملحن الكبير رد علي صوته قائلا :

– قبل ما أعلم أسمك وبلدك .. أحب أن أتقدم إليك بالشكر على اختيارك لي .

ثم الحكم الثاني المطربة المشهورة الكبيرة تغازله :

- اعتقدت أن صوتك فقط الذي يتمتع بالجاذبية .. لكن ملامحك أيضا .. خسارة أنك لم تختاري أنا

الحكم الثالث المطرب المشهور :

- مثل هذا البرنامج أنشي فقط لأمثالك

الحكم الرابع الذي تحدثاً معه من قبل أستاذ خالد :

- أعجبني صوتك

تبسماً مالك لنجاحه وكأنما لا يصدق نفسه وعينيه تمتلئ بريق النجاح ، تجوب عينيه المكان كله من الانبهار حتى أنه عاجز عن الكلام . دخلت الإعلامية المسئولة عن البرنامج تعرف الحكام والجمهور بـــ مالك وهى تغازل في صوته وإحساسه الرائع . خرج من الفندق مالك في سيارة أستاذ خالد والكلام بينهما شبه منقطع إلا في كلمتين فقط من مالك وكأنما يرميهم على عتبة بابه ويجرى :

- لقد أوفيت بأول اتفاقنا

بعد مرور ثلاث أيام بدأ مالك لأول مرة يدخل أستوديو التسجيل يقوم بتسجيل أغنيته الأولى ، ولكن يحدث خلاف مع أستاذ خالد بشكل واضح بسبب اختيار أول أغنية ، رأى مالك أن ما يفعله المدير الفني انتقاما منه ، حينما فرضاً عليه من مستر أسعد ، لذلك لجأ مالك إلى صاحب الشركة مستر أسعد الذي رفض الدخول بينهما ورغم مالك أن يصغى لقرار المدير الفني ، لا يجد سبيل أمامه إلا أن يرضى بالوضع الحالي .

قام بتسجيل الأغنية بناءاً على رغبة المدير الفني لشركة ، مما جعله المدير الفني يعيد تسجيلها مرة أخرى، فرفض مالك بشده فتدخل بينهم الملحن صاحب الاسم المعروف في مجاله ، فدفعه مالك من أمامه تارك الأستوديو ، يسير مع نفسه وكأنه لا يريد الآن أي شئ من الدنيا ، وكأنه في هذه اللحظة نظر للحياة نظرة البغض منها. وكأنه استحقر كل ما فيها بعد أن شعراً أن حلمه سبب فزع كرامته وكبرياءه لام نفسه أنه عاداً بعد أن قرر الهجرة عن حلم الغناء .

رأى الفزع في مستقبله من بعيد بعد ما سيصبح نجم مشهور وكأنما بغض الحياة كلها ، فأنه في النهاية مودع كل شئ وتارك الدنيا يوارى التراب وكأنما غمرته حاله إحباط ، كل هذا التفكير أخذه لليأس، لكن مع اتصال المهندس أسامة بعد أن علماً بكل شئ . رجعه لطريقه وكأنه الأب الروحي له فسأله:

- تتذكر عندما أتيت لي .. وطلبت مني أن أعلمك فن المعمار مع أنك خريج هذا القسم ؟ .. سلم موهبتك للصاحب الخبرة كي تصل إلى الفنان الذي تحلم به... أنا كالمتهم واعتذرت عنك .. عود لمستقبلك وليس لهم وأكمل البرنامج وأحصل على اللقب .. لا تضع فرصتك تهرب منك .. فاخشي أن لا تستطيع أن تكرر مثل هذه الفرصة مرة أخرى

كل ما كان مالك يسبح فيه من لحظات تبخر ماءه وعادت له ابتسامه الحياة الجميلة . عاد إلى الأستوديو وأوقف أمام الملحن صاحب الاسم الكبير قائلا :

- أنا لم أعتذر أليك في هذا الوقت الحالي غير حينا أصير مطرباً كبير .. حتى يليق الاعتذار بمكانتك

ابتسم الملحن وكأنه تقبل ما قاله مالك وطلب منه أن يدخل ليعيد تسجيل الأغنية مرة أخرى ، فنظر مالك إلى المدير الفني لشركة يسأله :

- لماذا تفعل معي هكذا ؟

ترك الإجابة متجه للجلوس بجانب مهندس الصوت قائلا :

- دعنا لا نهدر وقت أخر في التسجيل

بعد أن إعادة مالك تسجيل الأغنية علم أنهم كانوا على حق عندما سمعاً التسجيل القديم .

وعاد مالك لشرم الشيخ ليقوم هناك بتصوير الأغنية " فيديو كليب " ، حاول أستاذ خالد يسارع الوقت لتصوير الأغنية حتى يعودوا لتكملة البرنامج الأغاني ، وقف مالك بعد انتهاء

تصوير الفيديو كليب قبل ليلة السفر يسأله عن ميعاد إعلان الأغنية على القنوات الفضائية ، فأجابه أستاذ خالد وكأنما يتجاهله :

- وقت عرض الكليب والأغنية من اختصاصي .. وحينا يأتي الوقت سأبلغك

حاول السيطرة على أعصابه لكن شرارة الغصب حاولت رمي اللهب النار قائلا :

- ومتى سيحين هذا الوقت ؟

وكأنما تفضل عليه بالإجابة بعد أن خطي ثلاث خطوات :

- لا تتعجل .. عندنا غدا تصوير حلقة أخرى للبرنامج .. وسوف تقوم بعدها بالغناء في حفلة داخل جامعة خاصة .. ثم نحدد بعدها الميعاد

هنا أتى المهندس أسامة مرة أخرى يضمم على صبره ليأخذ صبر جديد على صبره القديم ليكمل المشوار . واقف في البرنامج داخل المرحلة الثانية وهى مرحلة (الاختيار) وإن نجح فيها مالك سيغنى مرة أخرى حتى يتجاوز هذه المرحلة .

هذه المرحلة خاصة فقط بالحكام أن يختار فقط من يكمل معه ضمن منافسة فريقه كله . يضع تقيماً لكل متسابق تحت مؤشر مئوي لكل متسابق ، ويعطي في الأخر الحكم قراره ليبقى معه ٧ متسابقين .

دخل مالك هذه المرحلة وهو لا يبالى نجاحه أو فشله وكالعادة تخطى أول جزء من هذه المرحلة متصدر فريقه .

أكمل مشواره مع الشركة قام بحفلة غنائية مع كبار النجوم داخل جامعة خاصة ، أستطاع من خلالها أن يثبت نفسه كفنان يلم حوله القلوب ، متخطياً حواجز خوف لقاء الجمهور مباشرة .

باقي يوم ويعرض البرنامج على المحطات الفضائية الذي ينتظره عشاق الموسيقى من كل الوطن العربي ولم يبقى لــ مالك الإبحار في الكتمان أكثر من ذلك بعد أن أبحر طريق الغناء وبعداً عن مرسي وظيفة الهندسة .

استعدا لإخبار الجميع . عاد لمنزل عمه يستعد لمشاهدة البرنامج في حضور الجميع وبدأ بتجمعيهما كالذي جمع نجوم السماء حول القمر ، لجهز للاحتفال وكأنه يحضر حفل عيد ميلاده ، سال دينا عن عمه التي أخبرته أنه في المخبز لكنها مندهشة لكل لهذا الاحتفال فسألته :

- أكيد تمت ترقيتك .. لذلك تعد لنا مفاجأة

ابتسم مالك على سذاجتها فتظن من هذه الابتسامة المريحة أنها أوقعته أكدت على نفسها قائلة:

- لقد تمت ترقيتك في العمل ؟

رد مالك هامساً وكأنما يكتم سراً :

- ممكن كتمان هذا السر إلى أن يأتي الجميع ونخبرهم

بسعادة بالغة :

- طبعا ممكن

خرج مالك آخذ عمه من المخبز كالذي يختطفه ، وأخرج سامي أبن عمه من غرفته أمام التلفاز، وبقت دينا التي كذبت على نفسها أنها الوحيدة التي علمت سره والكل حاول أن يستدركها فرفضت الإجابة ، باقي خمسة دقائق ويعرض البرنامج ، فطائر على شقة نور يرن الجرس بشدة كالذي يستنجد بـــأحد ، خرجت أمها مفزوعة تسأله:

- ماذا جرى؟

دخل مالك وهو لا يجيب ، ناد على نور التي خرجت من غرفتها مندهشة من عودته :

- متى عدت؟

أجاب مالك بعد أن نظر في ساعة يده:

- لا يهم الآن متى عدت ؟ المهم أن تأتوا معي جميعا إلى شقة عمى

خرج الوالد من غرفته على السؤال عينه :

- ماذا يحدث؟

وكأنما احترقت أعصابه من مرور الوقت قائلا :

- لم يبقي سوى دقيقة وتعلموا كل شي

أخذهم جميعا إلى الشقة والكل ينظر لبعضهم البعض إلا دينا الجالسة في هدوء بال ، نظر الكل إلى مالك ينتظروا منه الجواب على جمعهم هذا ، واقف مالك أمام التلفاز في يده اله التحكم عن بعد قائلا:

- لقد كذبت عليكم كل هذه الفترة الماضية

لم تتعجب نور مثلهم التي كانت تشعر بتغيره منذ فترة قائلة :

- لقد انتظرت هذا اليوم منذ أن أخر سفرك

وكأنما مالك تجاهلها مؤقتاً :

- أن الأمر الذي أتحدث عنه هو خاص بالعمل فقط

تغيرت ملامح وجه دينا من راحة بال لاندهاش مثل الجميع . قام عمه فسأله :

- الم كنت تعمل طوال هذه الفترة ؟

وكأنما رماهم في لغز أخر :

- ليس بهذا الأمر

فعادت مرة أخرى ملامح دينا إلى ثقتها لكنها لم تستمر على هذا الحال . شغل مالك التلفاز على المحطة الفضائية التي تبث البرنامج قائلا :

- لقد أبرمت عقد مع شركة أنتاج فني وأخذت مال

فغضب وجه عمه :

– لماذا اتخذت هذا الطريق مرة أخرى .. الم ننهى هذا الأمر من قبل ؟

قامت دينا بفرحتها قائلة :

– هذا أجمل خبر سمعته

فبدأ يظهر صوت مالك من خلف الغرفة المظلمة ، فأشار لهم أن يسمعوا وقام برفع الصوت وبعد أن انتهت فقرته ، أخذ رد الفعل من وجوهم واحد تلو الأخر ، واتجه مالك بنظره إلى العم الذي شعر بالصدمة لكنها ليس بالقدر الذي كان يتخوف منه مالك ، لأنه تغيرت ملامح غضبه وعادة ساكنة هادئة في بحر غضبه ، فاقترب منه مالك وجلس بجانبه :

– أنا لم أقصد أن أخبئ عليك .. فخشيت من الفشل مرة أخرى .. وأعتذر أنني قومت بتبديل أسم أبي ..

أشار العم بإصبعه في وجهه جعله يكف عن الكلام قائلا :

– لم يعد يهم .. وأظن أنه أفضل أنك غيرت أسم والدك

لكن الاندهاش احتل مالك والكل فسأله :

– تخيلت أن تغيري لأسم والدي سوف يغضبك !؟

فبرراً عمه وكأنه يكذب :

– أنا لم أقول أنني لست غاضبا طالما هذا الأمر سيساعدك على تحقيق حلمك .. أتمني لك التوفيق يا بني

نظر مالك على أخر وجه وكأنه يريد أن يختتم بالقمر، فأقمت نور هاربة بغضبها ، وعلم مالك إلى أين ذهبت ، فانتظر قليل قبل أن يخرج خلفها يهمس بكلمات في أذن عمه ، فحرك عمه يحرك

رأسه مشيرا بالموافقة فعناقه مالك بشدة وكأنما يسكنه العم في بحر الأمان ثم يدفعه عمه ليلحق بـــ نور .

صعد مالك إلى السطح المنزل فوجدا نور راكنة على السور ، اقتراب بهدوء بعد ما كان خطوة قدميه سريعة . واقف بجانبها فسألها :

- لم يعجبك صوتي ؟

نظرت إليه باستياء ثم ابتعدت عنه كي تتركه فقف أمامها كالحاجز يدافع عن نفسه :

- هذه المرة خشيت أن أعلم أحد .. خشيت إن أبث الآمال الكاذبة في أعينكم .. بعد أن نزعتها من صدوركم .. وخاصة أنني لم أكن امتلك حجج أخرى

أجابته باللوم :

- ليس هذا مبرراً في أن يعطيك الحق .. في أخفاء أهم لحظة في حياتك

فتركته فقال لها وهى تبتعد عنه :

- أقسم أن كل ما أرادته إلا أن أهديك هذه المفاجأة

واقفة نور والتفت :

- لكنني كنت أتمنى مشاركتك

اقترب منها وكأنما نزف الحزن من عينيه قائلا :

- لو تعلمين مقدار ألم الذي كنت أجنيه من كل يوم يمر حتى أعد لكِ هذه المفاجأة .. لقد تحملت عذاب ليالي وأياماً عشتها هنا في القاهرة .. وكنت أداريكِ عنى حتى أجهز لكِ هذه الهدية .. أسف لكني لم أقصد أبدا خداعك

زاغت عينيها ثم عادت تستند على السور فبتسم مالك وعاد يقف بجانبها :

- ألم عجبك صوتي

قامت برفع كتفيها مندهشة وأجابته :

- رأى قدمته مسبقاً بل أمنت به ولم أشك أبدا في موهبتك يوم

مالك :

- لكن رأيك الآن سيكون له مذاق أخر

ابتسمت قائلة :

- سأكون أول إنسانة تصوت لك في البرنامج

فأتت حتى تغادر السور فسألها مالك على غفلة :

- هل تقبلين زواجي؟

واقفة نور وهى لا تصدق نفسها وكأنما أمطرت السماء فجأة ، فنظر في عينيها قائلا :

- لا يوجد سبب أخر يؤجل ارتباطنا

وضعت نور وجهها في الأرض تسأله :

- أظن أنك تعلم جوابي

رفع مالك رأسها وكأنما يكشف عن وجه القمر ، أو كالذي يفتح نافذة ليطل منها على الدنيا ، فأدرك غضبها فبعد يده مسرعة قائلا :

- وأنا أحتاج أن أعلم الجواب منكِ لسببين .. أولهم أن هذه أسعد لحظة في حياتي وأنا اسمع موافقتك

سكت مالك منتظر جوابها فاندهشت وسألته عن السبب الثاني . دارت عينيه قائلا :

- لأن عمى تحت الآن يقوم يطلب يدك من والدك .. وأنني أخاف هذه المرة أن تغضبي لأنني لم اخذ رأيك

ضحكت نور قائلة بهدوء :

- طبعا موافقة ولسببين أيضا .. أولهم أنني احبك

فتركته على غفلة انتظاره للسبب الثاني ، فذهب خلفها منعها من التقدم حتى تخبره عن السبب الثاني فأجابته:

- قبل أن تسرقك المعجبات مني

رد عليها في الحال :

- يارب

واقفة مندهشة :

- بما تدعوا ؟

مالك بلطف :

- أن يكون لي معجبات

وقبل أن تهب نار الغيرة في وجهه ، برأ نفسه قائلا :

- لا تسيء الظن بي .. هذا هو دليل نجاحي

فعادوا إلى الشقة يحكى لهم باقي مسيرته من أول الفرصة لكتابة العقد وعن السبب لتغير أسم والده فوجدا أن المهندس أسامة انتقل إلى قلوبهم بعد سماع قصته . انتهت هذه الليلة بإعلان خطوبة نور ومالك .

* * *

لازال البرنامج مستمر في عرضه ومالك مازال في قائمة التصدر لمجموعته ، أحاديث الجرائد بدأت تخطف له مساحات وبدأ أسمه ينتقل في البيوت وبين الشباب في كل المحيط العربي . بدأ البرنامج في زرع بذرة نجوميته وبقت المرحلة الذي يتصدرها مالك وهى (مرحلة الإعداد) قائمة إلى حين أن يتم الانتهاء منها .

واقف هنا مالك في مواجه مع أستاذ خالد لعرض كليبه ، لكن وجد الرفض منه على حاله باقي على عهده ، بعد رفض مالك تكملة البرنامج معللاً أنه أخذ منه ما يريد .

فتدخل هنا المهندس أسامة مع مستر أسعد الذي قرر عرض كليب مالك بعد رفض أستاذ خالد ، ومرت أيام وعرض الفيديو كليب على جميع المحطات .

فزع الكليب انتباه الناس وإعجابهم وخاصة بعد أن وجدا البرنامج له المساحة لتقبل الناس له ، حتى المرأة التي تسكن القصر وتعمل بداخله " مربية " أعجبها عرض الكليب الذي لا تتوقف الفتاة المدللة مي عن مشاهدته وحفظ كلمات أغنيته التي ترددها مع نفسها في كل لحظة . شد هذه المرأة رؤية مالك لعمق بعيد داخل نفسها ، ترى في شبابه عمر أبنها التي لم تره وخاصة أسمه الذي يشبه أسم أبنها ولهذا السبب ترد على اندهاش سيدة القصر الطبيبة (هدى) التي تدخل عليهن قائلة وعينها على " الكليب " الذي يعرض:

- مي ولأي أحد تتسمع... لكن ما هي حكايتك مع هذا المطرب الشاب !

قامت المربية وأجابت :

- ربما لأنه أسمه مالك

ابتسمت الطبيبة وقالت :

- أن شاء الله سوف تلقي بينكما الأيام قريباً

ونظرت على أبنتها نظرة أخرى حملت الشدة :

- أين المذاكرة يا طالبة الهندسة ؟

انتهت مي من مشاهدة الكليب وهى تتراقص قائلة :

- حاضر

استأذنت المربية وذهبت إلى غرفتها وأخرجت من داخلها كتر ذكرياتها ، تذكرت ولا تنسى رضيعها التي لم تره إلا طفل ، أخذه والده منها وكأنه ينتقم منها وكأنما ردت على ماضيها الآن قائلة لنفسها :

- لأمتي سوف أستمر أدفع ثمن غلطة عمري كل هذا الحرمان !!

واقفة بالدموع بين شطين الحاضر والماضي وبينهم ماء الحنين يجرى أمامها ، وشمس الزمان تضئ لها عمرها الذي مر عليها عابر سبيل ، حتى شعرها الكثيف من السواد غطاءه ألون الأبيض لكن كل ما ذهب فأنه لا يساوى شئ في أنها تعيش لحظة واحدة ترى فيها أبنها ، لا تملك الآن إلا أن تناجى الله .

لازال أثر الكليب يتجول بـــ مالك من نجاح لنجاح ، ليتحول إلى نجم مشهور تشير عليه الناس بين ليلة وضحها ، حتى جيرانه وسكانه كلما رأوه لم يصدقوا أن هذا الذي يعرض كليبه وتتنقل أغنيته بين الأفراح والمنازل والسائقين والسيارات والشباب .

التفت منتجين السينما له يستغلوا نجاحه الأول ، يسجل أغنيته الثانية ويبدأ في تحضير كليبه الثاني الذي تتحمس الشركة لإنتاجه ، حتى أنه قام بقراءة أول فيلم سينمائي له وكأنما مالك لا يصدق نفسه ، أخذ " السيناريو " الذي وافق عليه قبل أن يقرئه ، طائر به إلى لمت أهله ، جلس بينهم

يختصر لهم دوره في الفيلم ، قابله الكل بالفرحة العادية لدخوله فقط السينما وليس لدوره في الفيلم لكن نور الوحيدة التي رافضاً الفيلم قائلة :

- كنت دائما ترفض هذه النوعية من الأفلام أن تشاهدها

أجابها :

- لكن يوجد أناس أخرى تحب هذه النوعية من الأفلام التي تحقق أرادات عالية .. لأبد أن أستغل كل الفرص التي تأتى ولا أفرط في فرصة واحدة

واقفة نور باستياء :

- من المفترض أنك تكون تعلمت أن كل شئ يأتي بالصبر

واقفة أمامها وكأنه في مواجهة بينهما ، فتدافعه بحديثها من أمامها قائلة :

- هذه لم تكن فرصة حتى تخشى فواتها .. مالك أهتم فقط الآن بالبرنامج

جلس وكأنه يريح نفسه من مشوار طويل قائلا :

- أكثر ما سوف يقدمه لي البرنامج الآن لقب .. لقد اكتفيت مما أخذته منه

تبسمت نور بسخرية :

- أخشي أن يصيبك الغرور .. وتنهي حياتك الفنية باكراً

اكتفي بالنظر إليها وكأنه يبعث لها رسالة يتهمها فيها بوقوفها ضد مستقبله ، فانسحبت من أمامه ليختار طريقه بعيد عنها ، نظر الكل له وكأنهم يؤيدوا نور لكن دون أي كلام ، سأله عمه وتجاه عينيه على باب الشقة :

- اذهب لتصالحها

واقف قائلا :

- لم أعد تحمل شيء يعطلني عن حلمي الآن

دخل إلى غرفته وكأنه لا يسلم لأي شئ إلا لطريق الشهرة ، ووقع عقد فيلمه ، وحينما انتهى من التوقيع عقد له اجتماع صغير مغلق داخل مكتب الشركة الفنية مع أستاذ خالد والمهندس أسامة سألوه عن الخطوة التي أخذها وسوف تبعده عن البرنامج فأجاب نفس الأجابة :

- أنا لا أحتاج للبرنامج الآن

فوجدا المهندس أسامة يعارضه قائلا :

- مالك أنت أخذت الشهرة السريعة التي لا أرضية لها .. ولكنك لم تأخذ النجاح

وأندهش لأول مرة من كلام أستاذ خالد :

- نحن لم نريدك يا مالك فكرة حلوة .. بل نريدك حكاية طويلة

بعد مرور حالة اندهاشه يسألهم :

- وأن بعد كل هذا تم خروجي من البرنامج .. ماذا سوف أكون في نظرك .. أنا قررت الابتعاد وأنا على قمة النجاح قبل أن يتم خروجي .

ولا يترك فرصة السينما ركض خلفها وحدد ميعاد التصوير بعد شهر . مرت ثلاث ليالي انتظرت فيه نور أن يكلمها وكأنها تتمنى المستحيل ، أو حتى تراه صدفة كما كانت تراه خارج أو داخل الشقة ، مع أن قلبها منه غاضباً لكنها قلقة على غيابه وتخشى أن يكن أصابه شئ ، مع أنها عندما تحدث نفسها عن سر هجره ، تتمنى أن تجد من هذه الأشياء سبب كي تقبل عذره عندما يعود لها ، تسأل عنه من بعيد ابنة عمة دينا ، التي تعمدت نور انتظارها ، خرجت معها وهي ذاهبة إلى الجامعة ، دار معها الحديث في الأمور العادية ، وكلما حاولت تسألها عن مالك ، عجز لسانها وكأنما عاجزة عن نطق أسمه ، شعرت بها دينا وسألتها :

- لازلت على خصام مع مالك

رفضت الإجابة والحزن يبحث عن الدموع في العيون ، فاقتربت دينا قائلة :

- مالك يحبك يا نور

أخذت نور الهروب بعد ما علمت ما أتت له أنه بخير ، تركتها وهى تكاد تبكى من إحساسها على كسرة قلبها ، لكنها ترتاح لطمأنها عليه ، تسير وهى لا تعرف كيف اجتمع بداخلها النار والثلج .

لم يشعر مالك بجفائه لهذه الأيام نحو نور إلا حينما يخبره المنتج السينمائي في مكالمة هاتفية بينهم ، وهو داخل أستوديو التسجيل عن أخر المستجدات وأن يستعد لتصوير بعد أيام ، أتى مالك كي يطلبها على هاتفها المحمول نادوا عليه يسجل أغنيته الجديدة ، ويتوه مع النهار كله وأتى الليل يلف كالحيران في شوارع القاهرة بسيارته الجديدة ، وهو لم يعد يستطع الهروب عن ما يشغله ، بعد نور عنه ضد طبيعته الإنسانية كالجسد الذي لا يتحمل الظمأ ، وكأنما ينقصه شئ جعله بعيدا عن السعادة من تحقيق كل أحلامه ، فقرر أن يكلم نور لكن بعد عن مكالمتها وجدا المصالحة تحتاج لرؤية العيون قبل الكلام .

مع النية الهدية أن تكون هي أول من ترى سيارته الجديدة ولا يكتفي بذلك قرر أن يحضر لها هدية أخرى ليسرق سعادته لنفسه من عينيها التي كلما نظر فيها وجدا منها جنته .

واقف مالك بسيارته أمام الشركة منتظر خروج نور والخجل من نفسه يزاد كلما مر الوقت لخروجها من الشركة والعيون ستتقابل، رآها خارجه من الشركة ومعها زميلتها دائمة السير معها ، تردد في الخروج وكأنه يخشى العقاب ، يستمر في التردد إلى أن تبعد عنه قليل.

فيطرد تردده ويدور السيارة يركض خلفها وقبل أن يصدمها يقف فجاءت بالسيارة مما يرهبهم ، وقبل أن تصيح نور في قائد السيارة ، خرج مالك من السيارة ، تكاد تصطدم في رؤيته أكثر مما أفزعتها السيارة ، واقفة نور في مكانها و مالك منها اقترب وزميلتها اقتربت منه بانبهار تصافحه قائلة :

- كلنا ندعمك يا مالك

ترى أن كل من العيون بين مالك ونور متبادلة العتاب الذي يقابله الندم وكأن الشمس والقمر في لقاء ، تبتسم ابتسامة الانسحاب قائلة :

- أركِ غدا

تركتهم واقف مالك أمام نور يجد أن عينيها فقط هي التي تتكلم، فهرب من هذا السيف الذي يمزقه أبتسم بكذب وعينيه تروح على سيارته واضعا يده على ظهر السيارة قائلا :

- ألم تعجبك السيارة ؟

وجدا العتاب يقابله بسكين حاد يقطع في قلبه :

- كان أكثر فراق في خصمنا لا يتجاوز الدقائق ولو كنت أنا من أخطاءات في حقك .. كنت أنت الذي تتسابق للحديث بيننا

رفع مالك يده من على السيارة وكأنه يتنازل عن كل شئ مقابل عفوها قائلا :

- وكنتِ في الأخر تسامحيني

نظرت على السيارة ووضعت يدها مكان موضع يده من قبل ثم ابتعدت قائلة :

- مع أنني أكثر إنسانة تمنيت لك النجاح .. لكنني حاليا الوحيدة التي أخشى من نجاحك

واقف أمامها وكأنه يتوسل إليها بعد أن كادت تأخذ الخطوة المذبذبة من كبرياءها قائلا :

- ربما أكون تهت قليلاً .. لكن لم أبتعد عن عشقك .. لأنه بداخلي كأنفاس صدري .. أرجوكِ لا تعذبي بسكين العتاب إنسان لم يجد عذراً أكثر من ندمه

رأى من عينيها الشمس الصافية التي كانت تغيم على ضياءها غيم السحاب ، بعد أن أفرجت عن الضحى ، ومع ابتسامة خفيفة تدفئ مشاعره ، ابتسم ليكمل كلامه:

- ممكن أن تتحمليني قليل... كل نجاحي هذا أنتِ سببه.. وبدونك ما كنت أستطيع أن أخذ هذا الطريق .. فتحمليني هذه الأيام التي أحتاج فيها وجود أكثر من ما مضى

قالت مندهشة وكأنما تعاتب نفسها :

- يارب لا تجعلني أندم على نجاحك... ولا تنسى أنني أتحملت كل المصاعب من أجلك .. وعلى استعداد أتحمل أكثر من ذلك .. حتى أظل بجانبك

ركن أمامها على مقدمة السيارة :

- نجاحي رأيته من قبل في عينيك قبل أن أجده مذاع بين الناس

وفتح لها باب السيارة :

- تسمحي لي يا مولاتي

بدأت الناس من حولهم ينظروا على مالك وكأنهم يشبهون عليه، صعدت نور السيارة والسعادة كأنها طيور تحلق من فوقها ، مشي مالك بالسيارة في غير تجاه عودتها فنظرت حولها مندهشة تسأله :

- إلى أين تأخذني ؟

أجاب عليها بإشارة اليد والرأس أن تصبر ، وجدت نفسها على أعتاب محل مصوغات . فسألته :

- أنا لماذا هنا ؟

أخذها أمام البائع وأجاب :

- أليس من حقك الآن أن تضعي بين إصبعك خاتم خطبتنا

أخذته من أمام البائع وهمست له :

- معك مال لهذا ؟

ناظراً مالك على سيارته من خلف الزجاج المحل وكأنما يسخر :

- أنا الآن مالك المطرب ولست مالك الذي كان يعمل خباز !

وابتسم لها فلم تجد سبيل غير الاستسلام للحظة كانت تخيلتها كثيراً مثل أي فتاة ، وكأن الليل بخياله تحت ظل قمره قد مر والنهار بواقعه أتي تعيشه .

بعد مرور اليوم كله مع مالك فاستوقفته عند مستقبله وطالبت منه العودة للبرنامج مرة أخرى وأن يبتعد عن السينما مؤقتاً ، لكن أمام هذه العنين يجد مالك نفسه تائه في سحرها لا يرفض لها امرأ ، قائلا :

- طالما هذه رغبتك فسوف أكمل هذه المرحلة لأجلك

وبقى أمر السينما لغزاً أمامها فأجابها :

- لقد أبرمت العقد وأصبح يوجد شرط جزائي لا أستطيع في هذا الوقت الحالي أن أقوم بسداده إذا قومت بفسخ العقد

وكأنما استسلمت بل سلمت أمرها ، لا تريد إفساد اللحظة التي تعيشها مع مالك ، فتطلبت منه شئ إن كان الأمر بالسهل أن يغنى الأغنية التي كان دائما يغنيها لها في مرحلة البرنامج القادمة .

- ٤ -

واقف مالك على مسرح برنامج (ستار الشرق) في الجزء الثاني من مرحلة الاختيار في البرنامج ، ربما غرور النجاح تملكه أو ربما الإشاعات التي انهالت عليه أن لم يعد البرنامج يفرق معه في شئ ، وعدم التزامه في حضور (البرومو) الخاص بالبرنامج ، يجعل الحكم الخاص المسئول عنه بعد غناءه وتفاعل الكل معه على المسرح يقوم باستبعاده عن المرحلة القادمة .

مما واقف مالك مندهش وحتى عشاقه من الجمهور ، لكن لا يفرق مع مالك هذا القرار . حتى أنه لا يعلق على قرار استبعاده حينما تستوقفه الإعلامية الخاصة بالبرنامج عن رأيه في قرار عدم استكماله ، رفض الحديث .

فكان رد الصدى على استبعاد مالك سريعا ، اغضب قبل جمهوره إدارة البرنامج من لدرجة المشادة الكلامية مع الحكم إلا فوجئت الإدارة بالسعادة ، لان في هذه المرحلة من حق الجمهور أن يستعيد أحد من المتسابقين أن تم استبعاده وعودته مرة أخرى . فأصبح نسبة التصويت لعودة مالك تتجاوز الكثير من الوطن العربي .

أصبح مالك في خلال فترة قصيرة يقاسم النجوم في المكانة والشعبية ، وأخذ منهم صفحات المجلات والجرائد، على كل لسان ، الآن مالك في قمة ونجاح وكليبه كل يوم يزاد نجاح وبريق أكثر . ويبقى في أسئلة الجمهور والصحافة والأعلام كل يوم وخاصة بعد فرصة عودته مرة أخرى البرنامج .

داخل القصر التي تسكنه المربية امتلك مالك شغف (مي) وزميلتها ، على الجدران تعلقت صوره المتنوعة بل وتكون هي زميلاتها من المدعمين له في كل حلقة من البرنامج ، ومن صوته يرج جدران الغرفة، دخلت المربية الغرفة تحمل صينية العصير، فسمعت تعليقات الفتيات عن مالك وغيره من الفنانين .

واقفة تسرق السمع وهى لا تعرف لما تحب هذا الشاب ، وتكمل لهن تعليقا عن مالك من جمال صوته، فوجدت السخرية منهن على سنها وكأنها مراهقة ، وهى معهم تضحك و لا تبالي لتخرج من وجعها ، خرجت من الغرفة أصبها الحزن من شعور تجاه مالك غير مفسر لها. مما جعلها تشعل التلفاز في الهول جالسة تبحث عن " كليبه " بين المحطات كالمراهقين تجده يغنى أمامها ، وكأنها ترى بداخلها شئ مفقود .

أتت عليها الفتيات مما ينظروا إلى بعضهن بابتسامة السخرية تارة والاستخفاف تارة على تصرفات المراهقة التي ظهرت على المربية ، اقتربوا منها ، ومي رمت عليها كلمات الاستهزاء أشد حدة .

ضحكت عليها الفتيات وكل واحدة منهن ترمى كلمة سخرية ، والمربية مع نفسها تشاهد " الكليب "، عاد دور مي مرة أخرى في السخرية أثناء في عودة الأم وهى تسمعها قائلة :

- من الذي يشغل فكرك وعقلك وأنتِ في هذا السن ؟

صاحت فيها الأم :

- مي

نظرت لها مي والرعب يتلألأ من عينيها قائلة :

- أنا...

نهرتها بشدة :

- جزأك معي ليس الآن .. اذهبي فوق إلى غرفتك

واقفة المربية تدافع عن مي :

- كنا نمزح سويا

الوجه عينه الذي يحمل الإعصار طلت به علي مي مرة أخرى :

- أنتِ مازلتِ هنا

وعادت اتجهت إلى المربية بوجه حامل الشفقة فسألتها :

- مالك ؟

ابتسمت المربية من سؤال أجاب عن حاله :

- من مالك

وكأنها أجابت على فضول مي التي سألتها :

– لذلك أنتِ تسمعيه باستمرار

ردت المربية وكأنها تربت بإحساسها على مشاعرها:

– نعم ! ربما لأنه أسمه على أسمه وعمره يقترب من سنه .. من سبعة وعشرون عام وأنا لا أرى أبنى

انتقلت مي على يمنيها وكأنها ريح عاصفة أتت بجانبها ، لتطوحها عن صبر أحباله المتمزقة قائله لها :

– ربما يكون مات

صرخت في وجهها وكأنها ترد هذه الريح عن شرفة حياتها التي تفر من كل وساوسها :

– لا ! أبنى لم يمت

فجلست المربية التي رأت أنها تكذب على نفسها، تلحقها " الطبيبة " في الجلوس ربت على كتف المربية وأخذت إلى صدرها قائلة :

– أن شاء الله سوف تجدي مالك عاد لكِ

وضعت الدموع قطرتها على وجه المربية ، شعرت مي بجريمة ارتكبتها في حق نفسها لكن كبرياءها يجعلها تبرر:

– لم أقصد ما أكنت قولته ...

فتجد الجواب من أمها قاسى على كبريائها :

– أغلقي فمك وأغربي عن وجهي الآن

صعدت مي إلى غرفتها وهى تضرب بقدمها الأرض ، حاولت الطبيبة التخفيف عنها قائلة :

– أنتِ من ربيبتي مي وتعلميها أكثر مني

تركتها هي أيضا المربية هاربة إلى غرفتها وكأنها هاربة من أي مبرر أصبح عقلها يكذبه ، انقطع منها شريان الأمل والخوف من أمامها يضمها ، حاولت صده عنها لكنه أقوى منها ، تخرج له دمعها توسل للخوف اللعين أن يتركها ، وأن كان يعود لها بأمل كذاب تكمل به الباقي من عمرها .من خلف الباب تقرعه الطبيبة ، لم يهن عليها تركها على حالتها هذه ، دخلت عليها لتعيدها مرة أخرى على طريق الأمل قائلة :

- أنا أم وأشعر بما تشعرين .. وهذا الوسواس الذي يطاردك بداخلي يضرب صدري عن كل يوم يمر من غربة أبنى .. إلى أن أتأكد أنه بخير ... يرتاح قلبي ويعود في اليوم التالي هذا الشعور .. أعلم أن الوضع بينا متغير ... لكنها في النهاية سوف تكون النتيجة واحدة ... وقريبا ستلتقي به .. ولكل طريق نهاية .

هذه الليلة عاد مسرح ستار الشرق لعشاقه لكن بدون مالك ، التي علقت المذيعة عن عدم وجوده بين صفوف زملائه وتركت الإجابة للجمهور هل سيعود مالك مرة آخري بفضل تصويتكم أم سيكمل البرنامج بدون فنان أحبه الجميع .

في هذه الليلة سيكون حكم أخر يقوم بتصفية أحد فريقه ليبقى في أخر البرنامج مالك لغز الحاضر في عودته مرة أخرى .

وكأنما كل ليلة تلمع نجم مالك حتى وهو عن البرنامج بعيد لكن لازال حضوره يطغى على الجميع . أبتعد مالك عن الرد على كل أسئلة الصحافة والإعلام عن مشاركته من عدمها مرة أخرى في البرنامج ، أن أعاده الجمهور للمنافسة مرة ثانية ، بعد انشغاله بعماله الخاصة .

رحل مالك في هذه الأيام لرحلة حول الوطن العربي للقيام بحفلات وفي هذه الرحلة تعرف على مطربة لبناية " لينا خليل " لها أسم كبير في عالم الغناء وأصبحت صديقته وكثيراً ما يمضى معها معظم الوقت .

كثرت الإشاعة خلال هذه الفترة وسرعان ما انتشرت حول مالك والمطربة لينا خليل بعد ظهور مالك معها في عدة أماكن مختلفة ، فسر مالك دائما بأنها صداقة ، لكن كل ما ينشر عنهم جعل

نور أكثر الناس في نار وأكثرهم لرد ، وأن ما ينكره مالك لا تنكره المطربة لينا وخاصة بعد ظهور صور خاصة تجمع بينهما في لبنان ، وكأن هذه الإشاعة تسعدها من ذكرها في وسائل الأعلام ونشر صورها المتكررة في كل المجلات الفنية ، وبعد أن سرب من بعيد خبر زواجها العرفي منه

طالبت نور مقابلة مالك ومعها أخر مجلة نشرت صورهم التي تخطت حدود الصداقة . قابلها في مكان عام وهو يلتفت طوال جلسته حول نفسه ، يخشى أن يره أحد من الصحفيين ، فسألها كاللص الذي يختبئ من عيون الشرطة :

– ليس من الضروري كنا نتقابل في مثل هذا مكان

وكأنها ذبحت قبلها بما تسأله :

– تخشى مقابلتي في مكان عام وأنا المفترض خطيبتك .. لكن لينا مسموح لها فقط أن تظهر معك في أي مكان

دعي السذاجة :

– ماذا تقصدين ؟

رمت أمامه المجلة التي نشرت خبر زواجه العرفي سألته :

– يا ترى أين الحقيقة عندك ؟

نظر من بعيد في المجلة ثم أجاب :

– أشاعه !

قلبت له أوراق المجلة تقلب صوره مع لينا :

– وبما تفسر عندك هذه الصور ؟

غلق مالك المجلة :

– ليس معنى هذا أن يوجد بيني وبينها أي علاقة

باندهاش سألته :

– أحب أعلم ما الذي يجمع بينكم .. برغم أنني أعلم أنه ليس بينكم أي عمل فني مشترك

رد بعصبية :

– من فضلك يا نور دعكِ من هذا الشك وكفي إساءة الظن بي

غلقت أمامه المجلة على خبر زواجه العرفي الذي يغطى ظهر الغلاف ، تبتلع ريقها قائلة :

– اعتذر إن كنت تجاوزت حدودي

قامت نور مذهولة :

– مالك لا يوجد دخان من غير نار

تركت له المكان وهو لا يحاول أن يلحق بها ، غروره فاق إحساسه وجعله تحت قدمه ، حاول أن ينسى الموقف بعد إحاطة المعجبات حوله ، قام يلتقط الصور بينهم ويبتسم لكن بداخله شعور خفي ، يجعل ابتسامته مزيفة . خرج من المكان و شئ بداخله ينغز عليه . (نور) في قلبه نور ، لكن شهرته هي المسار الذي يسير خلفه ، السحاب المغيم بالشهرة على ضوء الشمس يجعل نور الحب منكسر ضياءه ، وطوال ما يكون تحت الأضواء لا يرى إلا نفسه، ذهب بهمه إلى صديقته المزيفة المطربة لينا التي استغلت ظروفه لتطرق له على باب العشق لتدخل إلى قلبه ، التي تراه محصن منذ أن قابلته . بعد ما حكي لها كل شئ ، تعطيه دواءها في كاس السم تسقيه بقطرات فسألته :

– إن خيرتك خطيبتك هذه بينها وبين مستقبلك .. فبما تختار ؟

نظر إليها وكأنه انتظر أن تجاوبه هي على سؤالها قائلة :

- أنت خلقت للنجاح والشهرة .. ونور الشيء الوحيد الذي يسعى دائما عودتك للوراء .. وطريق الفن لا يقبل أبدا الشريك فيه .. فبما تضحى أن وقفت بين خيارين ؟

تعجب مالك :

- في كلتا الحالتين سأكون أضحى بروحي

وضعت يدها على كتفه تلتف حوله قائلة :

- من الممكن تعوض نور مع أي إنسانة أخرى .. لكن من المستحيل تعوض نجاحك مع أي طريق أخر

واقف مالك ليترك وسواسها بعد أن أخذه كما تريد قائلا :

- ولماذا أسابق الأحداث قبل حدوثها !؟ .. نور مستحيل تقف أمام مستقبلي

قطعت كلامه :

- ربما ؟ لكن في النهاية ستكون هي التي اختارت وليس أنت .

مرت أيام ومالك يخشى أن يواجه هذا الاختيار ، والنار حوله تضعه أن يصنع مصيره ، وحوله لينا كالوشاح الذي يلتف حول الرقبة ، حاولت سرقته لنفسها ، أحيطت به من كل مكان لتملئ مكان نور أعطته حتى كل شئ كان محروم منه ، من لمسه الأيدي التي لم يأخذها كأبسط حقوق العشاق ، تبادله بأحضان تفتح له الذراع ، ابتعد مالك قبل أن تعرض عشقها الذي خاف أن يفتح له الباب ، مما جعله يطير إلى نفسه وفرد جناحه المكسور بعد أن استطعت لينا أن تكون البديل بعد نور ، إلى منطقته وكأنما أتى خصيصاً ليفصل في أمره ، معه حرس شخص يحميه من تكدس جيرانه حوله . صوت نداء الناس عليه يجعل الشرف المغلقة فتحت ، فأثر غضب عمه من رؤيته الحرس الشخصي من حوله ، وعلى نفس الحال من الناحية الأخرى أتعجبت نور ، رأت من ماضيها إنسان خدع نفسه في رداء الشهر والنجاح. بعد ما كان يواعدها دائما أنه لم يتكبر يوما على أهله وجيرانه ، أغلقت الشرفة قبل أن يرها وهى تكاد تتأسف لنفسها على مالك .

نزل أخذه سامي أبن عمه من وسط الناس ومن خلفه يصعد رجل من الحرس الخاص به ، قابله العم على عتبه الباب قبل أن يصافحه ، نظر على الحرس الشخصي وسأله :

- يا ترى الحرس هنا حتى يمنعك منا نحن أيضا !

نظر مالك إلى الحرس الشخصي يأمره أن ينتظر في السيارة وسأل العم :

- الم تصافحني يا عمى ؟

خرجت دينا ابنة عمه من غرفتها مسرعة تحضنه وهى تلومه :

- الشهرة أخذتك منا يا مالك

أجابها العم بعد أن جلس مستاء :

- الفنان أصبح جدول أعماله مشغول

جزا مالك على ركبتيه بين قدم عمه :

- رغم أنك تسخر لكن هذه الحقيقة يا عمى .. ليس عيب ولا حرام أنني اتعب حتى أصل لحلمي .. ثم بعد ذلك أجد نفسي في الأخر في عيونك مهتم

العم وعيناه تدور باندهاش :

- ونور ؟

نافخا هواء من الضيق وأجاب مالك :

- نور لا تستطع تتفهم الوضع الجديد

ربت العم على كتفيه ، عظه قائلا :

- كلما ارتفعت للسماء كلما صغرت الأرض في عينيك .. لكن الخوف الذي أخشاه أن ليس كل الطيور التي عالت عن الأرض تهبط برغبتها !

قام مالك واقفاً :

– أنا لم أتغير يا عمى

منفاخا عمه وكأنما لا يصدقه :

– لماذا أنت هنا اليوم ؟

سأله مالك مندهش :

– هل من المفترض أن لا أكون هنا !

العم بلغة الأب :

– أنت تعلم جيدا ماذا تعنى لي

مسك مالك معصم يد العم أجلسه وكأنما لا يطيق كل هذا العتاب واللوم :

– وأنتم تعنوا لي مثلما أعني لكم .. لذلك أنا هنا لأطلب منكم أن تأتوا تعيشوا معي ... وترتاح يا عمى بعد أن أهلكك الزمن بكثرة الديون والمرض لأجلنا

بينهما ولآد عمه لا يصدقوا أنفسهم بما سمعوا ، لكنهم في انتظار قرار الذي ينظر في أعينهم ويعلم جوابهم فأجابهم :

– أنا لا أستطيع أن أمنع أحد منكم .. لكن أنا لا أقدر أن أترك هنا

سأله مالك عن السبب فوقف العم وكأنه ينظر حول ذكرياته المتعلقة هنا بالمكان :

– لا أستطيع ترك هذا المكان الذي عشت فيه عمري كله

اقتربت دينا من مالك قائلة :

– أنا أيضا أتمنى أن آتِ معك .. لكن لا أستطيع أن أترك هنا أبي بمفرده

بقى أبن عمه سامي ، نظر له مالك وكأنما سأله بعينها مالك فأجابه سامي :

– أنا معك .. مع أن المشوار لعملي من عندك لشغلي سيكون شاق

ابتسم مالك سذاجة سامي قائلا :

– من الغد سأستقيل من عملك وتأتى تدير أعمالي .. وستأخذ راتب لم يغزو خيالك من قبل

لم يصدق نفسه قائلا :

– أتمزح معي

وضع مالك يده فوق كتفه :

– لا أظن أنني سأجد إنسان غيرك ائتمنه

بعد أن كانت فرحة سامي لم تصدق ، اتجه مالك نحو العم مرة أخرى وجهه ويداه ممتدة :

– أريد أن طلب منك شئ .. لكنى خاف أن تجرحني برفضك هذه المرة

سأله العم بعينيه على الطلب فأخرج له مالك ورقة صغيرة بيضاء قائلا:

– هذا الشيك حتى تشترى حصة شريك في المخبز وتسدد كل ديونك

طاطى العم رأسه إلى الأرض وكأنه اندهش من سوء ظن مالك قائلا:

– يا بني لا تعتقد أنني ضد نجاحك .. أنا خوفي عليك فقط من غرور النجاح وزهو الشهرة

نزل مالك على يد العم قبلها قائلا :

– أنت الذي ربيتني .. فلا تخف وسوف يكون معي سامي .. أما الشيك لم تقبله مني ؟

بابتسامة عريضة ملئت وجه العم قبل المبلغ ، فأتت عليه دينا قائلة :

– ألم تسأل عن نور ؟

اندهش مالك :

- ما بها نور !

وكأنما ما كان يتوقعه العم :

- أكيد أنت منذ فترة لم تكلمها... نور مريضه منذ ثلاث أيام

واقف مفزوعاً وهو يلقي اللوم عليها :

- هي التي بعدت عني

استعجب العم بمرارة :

- لم تفعلها من قبل وأنت لم تكن شئ .. نور الوحيدة التي واقفة بجانب وصبرت عليك إلى أن صرت فنان مشهور .. يا بني أعد حساباتك وأنت تعلم من الذي أختار البعد والجفاء !

تدخلت دينا بينهم لتمنع أي صدام قائلة :

- اقترح يا مالك أن تذهب لتطمئن عليها وتصالحها

وقامت بدفعه تجاه الباب كي لا يحدث أي كلام أمام عمه الذي كظم غيظه . خرج مالك إلى شقتها علم من الأم أنها جالسة في شرفة غرفتها فستأذن ودخل لها.

وجدها جالسة على جسدها شال تلتف بداخله ، اقترب منها وجلس جانبها دون استأذن . الجيران أمامه ينادوه . وكأنهم علموا أنه سوف يمر على هذه الشرفة ، لوح لهم وسحب الكرسي أعطي ظهره في الجلوس للجيران لينفرد برؤية نور كالذي جلس تحت القمر لينفرد برؤيته قائلا :

- لم أكن أعلم أن نجاحي سيكون سبب في خصامنا

نظرت إليه متعجبة فسألته :

- وماذا قدم لي نجاحك ؟ نجاحك ساعدك أن تبتعد .. وجعلك أخر إنسان تسأل عني .. بعد ما كنت لا تفارقني لحظة حتى أن لم أكن معك .. كنت أشعر بأنفاسك تحميني وتظلل الخوف فوقي وكأنها تحرسني من نفسي... شهرتك أنا الوحيدة التي أدفع ثمنها

نظر مالك في الأرض يخجل من نفسه :

- لو قولت لكِ أنني اشتاقت إليكِ .. سوف تصدقيني

رفعت نور رأسه وكأنما أرادت ترى لهفته من عينيه قائلة :

- مثلما أكون أستمع لأغانيك مثل أي حد ... لكن صوتك الذي كان يدفيني الآن صار يوجعني .. أنا لا أنكر حبك في قلبي ... والذي أنا عليه الآن بسببك أنت .. لكن عليك أن تعلم أنه يوجد بينا الآن خيط ضعيف أتمنى أن لا تقطعه

شعر مالك بالخوف سألها :

- لماذا كل هذه الدراما ؟

استهزأت قائلة :

- لأنك سوف تمثل فأصبحت ترى الناس من حولك تمثل

مالك بعد أن تعجب بوجهه :

- أنا لا أمثل عليكِ ... أنا هنا لأحدد معكِ ميعاد زواجنا

أيضا تعجبت نور :

- زواجنا ! نتزوج وأنت على هذا الحال

صاح مالك وكأنما شعر بالظلم :

- لم يكن شئ بي تغير .. ولا أعلم لم الكل الآن يتهمني بعد نجاحي بالغرور والتغير .

انتظر مالك الجواب بعد أن نظرت ثواني في عينيه ، فسألها بعينيه عن سكوتها وإصبع يدها تلف به خاتم خطوبتها ، وكأنها أرادت خلعه لكنها لا تستطيع ، فأكثر ما تفعله استمرت تلف خاتم الخطوبة حول إصبعها وكأنما تطوف بين حبها وبعدها ، مثل ما هي تلف حول ماضيها، تجمع منه ما يمنعها من خلع الخاتم ، فأجابته وهى ناظرة بما نظر إليه :

- المغرور فقط هو الذي لا يرى نفسه مغروراً

مالك :

- أنا لست مغرور .. وحقا أعيش الواقع .. أسم وشهرة ونجاح ومكانه ومعجبين ومعجبات في كل مكان .. أنظري حولك وأنتِ ترى مكانتي في عيون الناس

قتلته بنظرة ثاقبة قبل كلامها :

- كل ما تفتخر به لا يهمنى .. أنت قبل ما تكون شئ في نظر كل هؤلاء المعجبين .. كنت عندي كل شئ .. أنا ابتعدت لأن مالك الذي أعرفه تائه في روح الفن والشهرة

واقفة تنهى معه اللقاء :

- أنا مريضة ومن المفترض أكون الآن على السرير

دخلت إلى الغرفة وهو من خلفها واقف أمام المرأة سألها :

- ما الذي أفعله حتى تصدقيني ؟

نظرت في عينيه تعطيه الجواب :

- عندما أنظر في عينيك وأرى بها أنا فقط دون زحام الشهرة والنجاح .. وقتها فقط لا تنتظر حتى تفعل شئ ستجدني معك .. لكنى أرى .... !

وكفت عن الكلام أشارت له بالخروج ، قبل ما بداخلها تخرجه ، تكتمه لكنه يصمم أن تكمل كلامها وهى في حالة رفض لتكملة ما تريد ا، تقوله ، طلبت منه الخروج تخشى أن يجيب على ظنها ، كما رأت في عينيه ، أتى لكي يخرج منعته قدمه الثقيلة عاد لها وكأنما أجاب على ظنها :

- أنت من شجعتني على أن لا أتخلي عن موهبتي .. ولذلك أرجوكِ أن لا تضعيني يوماً في اختيار

تركها مالك وموج النجومية احلي ألف مرة في عينيه من شاطئ يرسى عليه ، وكأنما يعاند الأيام ترجعه لينا خليل إلى البرنامج بعد طلب أستاذ خالد منها ، وكان له مقابل أن يسجلها أغنية ، حتى يظل نجوميته هي التي تطغى بكافة إشكالها على وسائل الأعلام .

عاد يقف على المسرح كالمنتصر على الحكم المسئول عنه ، بعد إن إعادة الجمهور ووجه رسالة قاسية إلى الحكم عن طريق مخاطبته لجمهوره قائلا :

- أنا الآن أصبحت مهتم لنال لقب ستار الشرق .. ليس لأجلي ولكن لأجل الجمهور الذي أعدني هنا للمرة أخرى .. حتى أنني لم أبهي برأي أحد غيركم أنت فقط

* * *

في لقاء تليفزيوني مع مالك يشاهده الجميع إلا نور هي التي فضلت الجلوس بعيد عنه ، تحدث فيه عن أهم أعماله ومشاريعه القادمة وحفلاته القادمة القريبة في أحدى الجماعات الخاصة وعن سر عودته مرة أخرى لبرنامج ستار الشرق ، أدخلته المذيعة في تفصيل بدايته .

ابتسم مالك ابتسامة خفيفة ودخل في بدايته الشخصية مع الفن وكل العواقب التي قابلته ، ولم يتجاهل دور أحد في حياته ، وعندما أتى على دور المهندس أسامة في حياته أصاب عمه بالفزع ،

ما يخشاه فعله الآن مالك حينما نطق أسمه الحقيقي " مالك عادل كامل " ونسب مالك الفضل إلى المهندس أسامة . أجابه العم في باله وملامح وجهه تتعصب كموج البحر :

– لم يا مالك ؟

وكأنما عاتب القدر الذي جعله فنان مشهور يشاهده الملايين ، وما يخشاه يطوى الصبر ويحيا الأمل في حياة المربية التي لم تصدق ما تسمعه ، خرج من بين شفتيها كلام تتوهم أن تصدقه:

– أبنى !؟

قامت مسرعة إلى غرفة مي دخلت دون استئذان ، غضبت مي وقبل أن تصرح بكلمة تجد المربية سألتها مباشرة :

– مالك

نفخت مي غضباً :

– مالك مرة أخرى

اقتربت منها المربية و هي لا تبالي لغضبها :

– مالك أسمه الحقيقي " مالك عادل كمال "

اندهشت مي :

– وبما تفرق معكِ ؟

لكن رأت مي على وجه المربية مالا يستدعى للجدل . إجابتها :

– أظن هذا أسمه الحقيقي

عاتبها سائلة :

– كنتِ من قبل تعلمي أسمه الحقيقي

أجابت مي وهى لا تفهم شئ :

- كل فنان تكتب سيرته الذاتية على الانترنت .. لكن لماذا ؟

جلست المربية على أول السرير وهى لا تكاد تصدق نفسها وكأنما نزل عليها كنز :

- مالك أبنى !

السر المرمى تحت تراب الزمان تقوم قيامته ويخشى عمه شروق الوقت لحسابه، يتمنى أن يبقى السر الذي قذفه في قاع البحور، لا يعيده الموج إلى أي بر . لكن لا تسير الحياة دائما تساير تخطيط الإنسان. لكل قدر ميعاد وتلتقي الأم التي دبلة ورودها من ليالي العطش مع أبنها، تقف تنتظره على أشواق سنين وسنين في حفلاته المقامة في جامعة خاصة ، جانبها (مي) حاولت معها تخطى الآلف المعجبين ، نادت عليه لكن صوتها العازف بالشجن خافت من أصوات الجماهير .

انتظرت مالك بعد إنهاء حفلاته وركضت في هذا السن مسرعه على الأمن ، تحايلت عليهم بكل ذل أن تقابل مالك وكأنما تتسول ، صعب عليهم أن يرفضوا طلبها وكأنما حنوا لها ، أدخلها أحدهم إلى الكواليس ، ندا رجل الأمن على مالك يقابل أحدى معجباته وكأنه مندهش من سن هذه المرأة، استسلم مالك لمقابلتها كمعجبة ومعها مي التي كادت لا تصدق نفسها من مقابلته ، صافحهم مالك وأتى ليتركهم تمسك الأم بمعصمه وكأنما قبضت على عمرها المنصرم ، نظرت في عينيه بتأمل شديد . تسترجعه من أول ما كان في عينيها طفل إلى أن أصبح بين عينها ، ابتسم مالك خجلاً للمحيطين به وكأنه ظن أنها من أحد المتيمين به ، اقترب الحرس يشدها من مالك ، رفضت بقوة وأبعدت يد الأمن عنها وحدثت مالك :

- ممكن يا بني أتحدث معك قليل على انفراد

وقف ثواني صامداً أمام العينين التي تدفعه أن يخلصها لكن يد الأمن أقوى فخلصها الحرس وأجاب عن مالك :

- المقابلة انتهت

فنظر مالك في عينيها وهو عنها يبتعد ، يرى مناجاتها له بين أحدبها ، نداء وإحساس غريب أوقفه ، عاد يخلصها من الحرس ، أخذها من يدها إلى غرفة مغلقة وأجلسها أمامه فسألها:

– نعم ؟

تبسم الحزن فيها وملأ وجهها حاملاً له سؤال :

– تعمق النظر في ربما تعرفني حتى توفر علي الكثير

ابتعد عنها قائلا :

– أنا لا أعرفك .. تحتاجي مني شئ أقدمه لكِ

واقف أمامه والندم كالخريف يلقي وجهها بعيدا ، فنظرت إلى الأرض قائلة :

– أحتاجك أنت

اندهش مالك وابتعد عنها :

– أنا لا أفهم ما تعنيه

أمسكت معصمه لم تعد تتحمل عنه بعد أخر حتى لو كانت هذه الخطوة التي ستفرق بينهم قائلة :

– أنا أمك

ضحك وكأنها تمزح وعينيه في عينيها وكأنما تحدثه من عينيها، كف عن الضحك كذب نفسه من ما يره من عين تحدثه بصدق :

– أنا أمي ماتت وأنا طفل.. عن أذنك

اقترب من الباب فقالت وكأنها تغلق الباب قبل أن يفتحه في وجهه :

– عمك الذي قال لك هذا .

وضعت له كل الأسئلة التي كانت دائما تحيره من ماضيه :

– لكن أين صورها في حياتك ؟ أين أهلها وأصدقائها ؟ أين يا بني قبرها؟

رجع لها وكأنما ليكذب نفسه :

– أنا زرت قبرها أكثر من مرة وكنت عنده منذ فترة قريبة

سألته وكأنما أوجعته :

– وشعرت بها ؟

صاح في وجهها :

– أشعر بها كيف وأنا لم ارتمى حضنها قط

وكأنما يبدلها الطعن :

– وأنا الآن أمامك

أتى لتلامس وجهه ابتعد عنها قائلاً :

– أنتِ إنسانة مجنونة

تعجبت من ساقية الزمن التي دارت بها فأخرجت بطاقتها الشخصية وقبل أن تعطيه قالت له :

– يارب تكون تعلم أسم أمك .. أن لم يكن عمك بدله

نظر مالك في بطاقتها الشخصية وجلس هامدا ، لا يصدق ما يراه ، نظر إليها بذهول :

– من أنتِ ؟

جلست بجانبه تريد ضمه إلى صدرها ، لكن تشعر بحاجز كبير بينهما وكأن بينه وبينها شواطئ وجبال ، نظرت له من شاطها البعيد ، وهى لا تصدق أنها عنه مازلت تبحر :

– أنا أمك

بحث مالك عنها في الصورة التي عاشت في خياله وانتقلت معه طوال مراحل عمره ، فوجدا الصورة المرسومة تشوهت وكاد لا يرها ، وخاف أن يرسم على وجهها الصورة الجديدة ، فأوقف وهو يضع خط أسود فوق صورتها . فسألها :

– حتى لو كما تدعي إنكِ أمي .. أين أنتِ بعد كل هذا العمر ؟

هربت من عينيه ، فهجم عليها بسؤال :

– أين كنتِ ؟ ولماذا خبا عمى وجودك عنى طيلة هذه السنوات ؟

ابتعدت عن الجواب وكتبت رقم هاتفها أمامه على ورقة بيضاء أضاف لها مع الحبر نقط من دمعها نظرت إليه :

– في هذا الوقت صعب الجواب

اقترب وكأنما هدداها :

– أظن أن عمى أعد لهذا اليوم الجواب

هزات رأسها والدموع من عينيها تتطوح على وجنيتها كالريح على الشعر ، نظرت في الأرض وهى لا تتحمل ما يدريه الزمن عنها ، حاولت الجواب ، لكن الكلام يسقط منها في بئر الكتمان ، نظرت على رقم هاتفها ورامته أمامها .

تركته يبحث مع نفسه عن الحقيقة ، خرج خلفها وسط الناس يستوقفها ويبعد عن أذان الناس يسألها :

– الغريب إن إنسانة مثلك وجدت إنها وجدت أبنها بعد كل هذه السنوات .. وبكل سهوله تتركه .. ولا أيضا علي أن اسأل عمى !

دموعها المتراكمة كالأمطار لازلت في سماءها . فقالت له :

– لأنني لا أعلم ماذا سيقوله لك عمك !

يدخل بينهم أبن عمه سامي يأخذه وهو ينظر عليها يسأل عنها:

- من هذه؟

أجابه مالك وهو معتمد أن يسمعها أجابته :

- امرأة لا أعرفها

تركته الأم ومن خلفها مي تلحق خطوتها ، نظر سامي في عين مالك يجده تائه قائلا :

- ما بك ؟

وكأنما حدث شخص أخر لا يجيبه ، فنظر مالك على الغرفة وعليها وهى تبتعد عنه ، فتركه مالك إلى الغرفة أخذ الورقة المكتوب عليها رقم هاتفها ، خرج من الغرفة مسرعاً إلى الخارج وسامي بجانبه تكاد تنقطع أنفاسه من خطوة مالك السريعة وهو يسأله :

- لم الاستعجال ؟

دخل مالك وسط الجماهير التي انتظرته لتودعه والأمن حوله يبعده عن الناس التي تنادى عليه وهو صامت حتى عن الابتسامة ، أتت عينيه في عين أمه فيتجاهلها ، فأخذه الأمن إلى سيارته . نظر مالك في الورقة ثم نظر إلى سامي طلب منه الذهاب الآن إلى بيت العم ، اندهش سامي :

- حالا ! وميعادنا مع الملحن

لم يترك لـــ سامي باب النقاش وأخذه على الفور إلى هناك ، حتى يعلم أيضا سر تغيره المفاجئ ، حينما دخل على عمه وراءه على هذا الحال عليه غبار الماضي ، علم أن وقت الحساب حان ، والسر خرج من كتمانه ، بدأ هو بسؤاله :

- قابلتك ؟

اندهش سامي وينا وسأل بدل منه سامي :

- من يا أبى هذه المرأة

أجابه مالك والاندهاش عالمه الآن :

- أمي

انتقل حاله بين الجميع ونظروا إلى والدهم ، فأخذ مالك بمفرده إلى غرفته يجيب على الاتهام الذي يملأ عينيه قائلا وكأنما كان خشي عليه :

- أنا لازلت عند وعد قطعته لنفسي .. وكفي عليك ما علمته

العالم الذي يعيشه مالك يحتاج لباب يخرج منه ، بهدوء كلمه :

- لماذا بعدتني عنها كل هذا العمر؟ وجبيت عنى سر وجودها

جلس العم يقص له وكأنه يلومه على معرفته :

- كذبت عليك لأجلك أنت .. هذه المرأة التي قابلتها لا تستحقك أن تكون أمك .. كان من الأفضل لك أن تعيش مجهول عن أمرها .. وتستمر متأكد أنها في قبرها من إنك تعلم حقيقتها .. أمك التي قابلتك بدموع كانت تعمل راقصة.. وكانت فتاة ليل .. كانت الدنيا تعيشها على هواها... تعرف عليها والدك وخدعته واستطاعت أن تتزوجه .. وعندما ولدتك لم يعترف جدك بنسبك .. لم يعترف بك يوم .. وبعد وفاة والدك أنا أخذتك وربيتك .. ولكن لم أخذك بخياري .. بل أجبرت على أخذك بعد ما رمتك أمك لي ... وجودك معها كان وقتها يفسد عليها الدنيا التي تعيشها

وقام العم يخرج له من باب الدولاب المغلق دائما بمفتاح لا يفرقه ، أخرج صور أمه ، وكأنه ينشر الماضي كله صورة وكلمة أمام عينيه سأله:

- هذه أمك التي قابلتك ؟

نظر مالك في الصور وأجاب العم عليه :

- وبما استفادت من معرفة الحقيقة

طبق مالك بين يده الصور يلوم في عمه :

- لكن عليك أن تخبرني بالحقيقة وأنا الذي أكرر

صاحاً العم في وجهه بما حمله من ثقل سر الماضي :

- وبعد ما علمت الحقيقة ماذا ستفعل .. ما فعلته أنا كان لأجلك أنت .. كان سبب خوفي دائما من أنك تدخل الفن هو لهذا السبب .. أمك هذه التي تسأل عنها كانت .... !

رد عليه بنبرة صوت عالية لكنها تخضع للكسرة :

- أرجوك لا تكمل

دخل على صوته الغرفة سامي ودينا ينظروا على الصور التي بين يده ، فهرب من أمامهم بماضي أمه ومن نفسه ، تاركاً بدل الصور سامي الذي أراد فهم كل شئ .

خرج مالك لشارع استقل سيارته ، وهتافات الناس له تخرج نور من غرفتها لتراه ، يقود السيارة وكأنه أراد أن يدهس الناس الذين التفوا من حوله من كل مكان . والذين يرتموا أمام سيارته ، حسبت أنه يعيش غروره ، وكأن في ابتسامتها الآن التي ارتسمت . تستعوض مالك من الزمن وهى ليست نادمة.

يكاد من الشك مالك أن يشك هو أيضا في نسبه لأبيه ، قلب في الصور وكأنما يلعن الماضي ، يطول عليه الليل في شوارع القاهرة بالسيارة، خاف أن يتفاجئ بأب أيضا جديد ،. هرب من شك لشك ورأسه تتعب من حمل التفكير، رجع لشقته يجد بانتظاره دينا وسامي الملهوفين عليه ، طلب منهم عدم الكلام معه الآن ، دخل إلى غرفته رمى بجسده على السرير .

* * *

بعد بحر الظنون والشكوك وسنوات العصف التي انتظرته من ماضيه ، خرج إلى ماضيه يواجه وقام بإنهاء مكالمة مع أمه طلب مقابلتها حالا.

التي علمت من نبرة صوته جوابه كله ، بعد أن كانت تتمنى لقاءه أصبحت تتمنى عدم لقاءه، قابلتها الطبيبة " هدى " وهى خارجة من باب القصر، تعلم منها أنها ستقابل مالك، نادت على السائق أن يصاحب المربية إلى أي مكان .

انتظرها مالك داخل سيارته في مكان لا يمر فيه إنسان ، رآها خارجة من سيارة فارهة ومعها سائق ، فلا يضع الاندهاش له سر ، الخيال الذي رسمه طوال الليل من شيطان الوسواس أخبره بأكثر من ذلك.

خرج من سيارته ووقف عنها بعيد وهى عنه خافت الاقتراب منه ، وكأنها تركت له الخطوة القادمة أن يختارها ، تقدم وعينيه على السيارة معلق بابتسامة ساخرة فردت علي ابتسامته :

- هذه السيارة ليست لي .. إنها ملك العائلة التي أعمل لديهم

سخر منها :

- راقصة كما كنتِ ! .. لكن لا أعتقد أن عمرك الآن يسمح لكِ بمزولة هذه المهنة .. ولا تزوجتِ رجل ثرى من الذين كنتِ على علاقة بهم

نظرت على السيارة متجاهلة سخافته التي تكاد تقتلها :

- أنا اعمل مربية منذ ٢٧ عاماً

استمر مالك في السخرية :

- مربية ! أنتِ مربية ! كنت اسأل نفسي دائما من أين أورثت موهبتي ! ولا أعلم أني قد أورثتها من راقصة وفتاة ....

كف عن النطق لا يستطيع أن يجرح نفسه فتكمل هي بدل منه :

- فتاة ليل

رد عليها كالمنتقم الذي أتى لأخذ ثارة :

- ليتك ما كنتِ ظهريّ في حياتي

أخذت نفس عميق تترف الألم منه وسألته :

- لماذا طلبت لقائي ؟

جعلها استنشقت هواء كاد يخنق نبضها بعد أن مرقها بنظرة استحقار قائلا :

- لأنني من حقي الآن استفسر منكِ أن كان لي أب أخر لا أعلمه .. ولا أنكِ لم تتذكري ؟!

تماسكت وكأن الحروف التي تحضر في خروجها ذبحت صوتها :

- عمك لم يحكى لك عن قصة حبنا أنا والدك

صاح مالك في وجهها ليعرف إجابة سؤاله :

- من والدي ؟

أجابته بالدموع :

- هو والدك .. أقسم بالله هو والدك .. وما كان في حياتي إنسان أخر بعده .. انظر إلى حالي وما أنا عليه الآن .. أنا إنسانة منذ ٢٧ عاماً أعمل مربية .. على كل حال أنت لا تعلم حالي حتى تحكم على ظروفي ..

قطع كلامها وكأنه لا يريد أن سمعها :

- أنتِ وأبى كانت أجمل صورتين في حياتي .. لكن الآن أنتم أكثر أثنين أعلنهم في حياتي

خرجت عن صمتها وكأنه تلومه :

- أنا أمك و أنت أبنى

في جراءة منه لا يدركها حينها ، صفعها على وجهها قائلا :

- أنتِ إنسانة ماتت من زمن منذ أن كنت طفل صغير

رمى صورها في وجهها وأكمل :

- أحرقي ماضيكِ بنفسك .. الغفران من الله ولبس مني

اخرج من جيبه دفتر الشيكات سألها :

- كام تريدين من المال وتبقى عن حياتي بعيدة ؟

نظرت له ويدها مكان يده التي صفعتها على وجهها ، وجعها قسوته ، ما كان يصل خيالها لهذا الحد ردت عليه بعد إن استعوضته من حياتها :

- ليتنى مت قبل هذا اليوم .. ولا أرى فيك هذه القسوة التي لم يوم أتخليها .. أنا لم احتاج منك مال .. وستكون هذه أخر ليلة سوف تراني فيها

تركته وكأنها توفي بوعدها وكأنما تذهب لتنفي روحها من هذا العالم ، وبقي في مكان المودع لم يصدق ما حدث له ، اتجه إلى سيارته وكأن على رأسه الجبال حملها ، مشي قليل بالسيارة واقف لا يقاوم التحمل لوحده يلجأ إلى نور التي أتصل بها وهى مستقلة قطار الأنفاق رن هاتفها ، نظرت في رقمه ولا تتردد ثانية في الضغط على نفسها لرد عليه ، كتمت صوت الهاتف وكأنه لم يرن . حاول مالك معاودة الاتصال مرة أخرى وكأنه علم أنها لم تجيبه ، فبعث لها رسالة نصية :

- أرجوكِ أنا محتجالك

أغلقت نور هاتفها نهائي ونظرت جانبها وجدت صوت مالك مغازلها من رنة أحد الهواتف فتعجبت وهى تكتم في نفسها التعجب .

قضى مالك يومين في القرية السياحية بشرم الشيخ ، بعيدا عن كل شئ حتى عن هاتفه المحمول ، لا يكلم إلا نفسه وطولاً جالساً أمام البحر يذكره بنفسه حينما كان لا يعرفه أحد كان يعرف ماذا يريد ، الآن يعرفه الملايين من جميع أنحاء العالم ولا يعرف نفسه ، حتى الرجل الذي أتي من أجله المهندس أسامة ، في أجازة ومستر أسعد صاحب شركة الإنتاج والقرية السياحية خارج مصر ، شعر وكأنه وحيداً وكأن النجومية التي كان يرى فيها اكتماله ، قللت من نفسه ، أخذت منه أشياء كثيرة منها نور التي خرجت من دنيته ، بعد ما كانت تضئ لياليه وتشرق نهاره أصبحت في حياته لمحة ، مدد على البحر وعينيه تبحث عن القمر في عتمة الليل ، أتى عليه رجل الأمن فزعه لكن أكثر ما جعله يقف مندهش وجود المطربة لينا خلفه فسألها :

- ماذا تفعلي هنا ؟

ابتسمت قائلة :

- أنا هنا لأجلك أنت

وكأنما يلومها :

- ومن الذي أخبرك بوجودي هنا

عاتبته بعد أن فتحت عينيها :

- غضبت لأنني هنا لأجلك !

أنتظر جوابها قليل فردت عليه بعد أن شبكت يدها في ذراعه :

- من سامي .. لكن أخبرني بعد ضغط شديد

ضمته تحت جناحيها ورفرفت به في عالمها :

- شعرت أنك تمر بأزمة ولم اسمحلك أن تطمع فيها من غيري .

وكأنه وجودها طوق نجاة يسحبه للبر ، حتى لو كان بر أخر يرسيه بعيدا عن شط بعيدا لم يدخله بخياله أو يأتي لحظة على فكره أو يسكنه في لحن ، تكفي أنها أعطته سبب لا يدينه حينما اختاراً طريق الشهرة وقابلها . بعد بها عن أي شئ يفكره بنفسه . لم يجرا أن يحكى لها عن أي شئ مر به ، وكأنما أراد أن يطوى معها ماضيه .

مر يوم ويوم وتبقى لينا له مسكن لا يتخلى عنها ، صاحبته حتى في أنفاسه ، وقبل أن يغادر القرية رابطته بها ورقة زواج عرفي ، وكأنه أنتقم من ماضيه ليدفنه في حاضره ، شاهد على عقد زواجه سامي والشاهد الثاني ملحن نهي معه أغنيته الجديدة ، يشعر مالك أنه تخطى كل آمله ولا يدرك أن كل شئ في جسده مخدر وليس صحيح .

والأم التي لا تعرف الهروب من ماضيها كادت لا تتحمل الحياة وأصبحت من سكان المشفي ، ترقد داخل غرفة خاصة في مستشفي أصحاب القصر التي تعمل لديهم ، لا تكلم حتى نفسها ، صامته عن كل شئ لا تسمع إلا نبض قلبها الموجوع .

أطمئنت عليها الطبيبة " هدى " وهى متوجعة لشعورها ، لا تستطيع بمكانتها العلمية أن توصف لها دواء يشفيها من داء يكسر قلبها ، لا تفيدها إلا بدعوة صامته أن يحن قلب أبنها عليها .

— ٥ —

دخلت دينا إلى غرفة نوم نور قبل أن تجلس طلبت نور منها أن لا تتحدث عن مالك فردت عليها دينا وكأنها تستعطف قلبها المنفطر نحوه قائلة :

- حتى وأن كان مالك يمر بمشكلة ؟

تلهفت عين نور أن تطمئن عليه لكن كبريائها جعل لسانها يتلجلج بما أراد أن يقوله إحساسها :

- لا يهم

تجاهلت دينا جوابها واستجابت لنداء إحساسها الذي لا يقاطع فرع عن حديثها عن مالك :

- منذ فترة ومالك وهو خارج مصر وعاد فقط من يومين .. مالك بعد كل هذا العمر تفاجئ مثلنا بوجود أمه .. أنها لم تمت

استسلمت نور لحنينها بعد أن كانت تعافر ، ركضت خلف حديث دينا تستمع لكل الأحداث ، ففهمت الآن سبب رسالة مالك لها في قطار الأنفاق .

قامت طافت حول نفسها تلوم في نفسها ومن خلفها دينا التي عرضت عليها فتح صفحة جديدة مع مالك مرة أخرى . مع التفكير استغرقت فيه نور لثواني تعيد فيه فتح الحسابات ، فشجعتها دينا وغلقت أمامها كل الدفاتر بابتسامة ممزقة قائلة بلوم :

- الذي لا يستطيع القسوة هو الذي يستطيع المسامحة .. يحتاج مالك الآن لكِ أكثر من أي يوم سابق

ابتسمت نور وكأنها طوت الأمس فتجد دينا تناولها هاتفها المحمول من على المكتب :

- أظن لو ضغطي فقط على رقم هاتفه سيكلمك في الحال

التفتت نور بالهاتف عنها طلبت رقم مالك على استحياء وكأنها أول مرة في حياتها تكلمه والتفت لـــ دينا والهاتف يغطى أذنيها ، وجدت الغرفة خاليه من دينا .

رن هاتف مالك وهو مستقل سيارته متجه إلى شقته ورنين نور على عهده بنفس النغمة المميزة ، شعر وكأنه يحلم ، نظر يتأكد من الاسم والابتسامة على وجهه ترتسم وكأنها غنوه حلوة يطل بها على الدنيا ، نسى كل شئ وكأن روحه عادت إليه والجسور التي بنتها لينا له اهتدت كهشة القش في مواجهة الريح . يوقف بالسيارة على جانب الطريق واستحياء نور لا يطولها الانتظار في اكتمال الاتصال أكثر من ذلك ، أنهت المكالمة وقبل أن تضع الهاتف على المكتب ويترك أصابع يدها، رن اتصال من مالك فردت في الحال دون انتظار ، لكنها واقفة عن الكلام صمتت وهو

معها على نفس التيار سار ، صامت الشفتين لا يعرف على أي شط يرسي له حديث ، تظن أنه أغلق الهاتف ، فقالت بصوت خافض حامل الخجل :

- الو... الو

صامت مالك يسمع صوتها وكأنه يرتوي منه ، جاوبها بعد أن سألته عن وجوده معها على الخط :

- أحاول التقط أنفاسي مرة أخرى .. ربما أكون بحلم

ما كان لا يتخيله في لمحة أخذته لخيالها :

- اشتقت إليك وأتمنى أن أراك

طمع قلبه منها بعد أن عادت الدنيا تأسره بها استأذنها :

- أن لم يكن يضايقك أن أراكِ حالا

حملت نور على كتفها حقيبة يداها وأجابته على عجل :

- أنا خارجة الآن من المنزل .. وسأنتظرك بنفس المكان

أشعل مالك ماتور السيارة وهو يستخسر على نفسه أن يغلق معها المكالمة :

- سأستمر أحدثك حين أصل إليك

مرت نور في الحارة ووجهها العابس من فترة نور الشارع ولفت انتباه المراقبين لها أو الحاسدين منها.

وهى مسرعة في خطواتها تقصر الوقت وكأنما تريد قتله ، مر أمامها من بعيد سيارة أجرة لوحت لها بإلحاح شديد استوقفته وكأنه ترجوه يقلها لمكان عودة الروح ، ومالك يلم يعد التحمل لمكان ما قابلتها سرق الوقت وبدل المكان وجعلها مطاردة للحاق بها ، عرف مكانها وطلب منها أن تسلك طريق أخر ليقابلها فيه ، مرت دقائق ونور توجه السائق على حسب توجهات مالك مما ضجر السائق في نفسه فدخن سيجارة ، مما أدركت نور إنها تجاوزت حدودها لكنها لا تفكر كثير

في أمر السائق لهفتها في المقابلة ، جعل منها إنسانة أنانية لا تفكر في غيره وترجع بإحساسها مع مالك الذي طلب منها أن تقف على جانب الطريق . أتى لها واقف ثواني في يده مقبض باب سيارة الأجرة لا يفتحه من لهفة عينيه عليها ، ظل تبادل النظر منهم لثواني وكأنما مزقت الأهداب أوراق العتاب واللوم ، وفتح الباب وكأنما الخريف أوشك على الربيع ، يقلها من هنا إلى هناك ، وقفوا على كورنيش المعادى في مكان جديد عليهم . على طول الكورنيش لا يجد غيرهم من غير السيارات التي تمر بسرعة جنونية خلفهم ، ومن أمامهم النيل وسحر الليل .

الشجن الذي كان ممزق دعي الحب ليوم من أيام الماضي أن يرى حاله الآن من الماضي ، فعاد موصول بالأماني بعد ما كان خائف ممزق الذكريات ، الكلمة من مالك يخرجها كحرف من الألحان والحس الجميل وكأنه يسقى الشوق من ضي الليل :

- دعي إحساسنا يسرق من داخلنا الخوف ونرمى الدنيا جانباً .. ونعد على سابقتنا بملامح أحلامنا

ابتعد نور عن العتاب واللوم وحتى الكلام عن أمه التي كان سبب في عودتها له ، طمعت في تركه مقابل اللحظة التي تعيشها معه ، أن تكون لها وحدها ، لكن مالك لم يعد قادر على الدنيا وبداخله كسر بابتسامة كلها شكوى ، أخبرها عن مقابلة أمه لم يؤجل الحديث عنها بكل ما يبوح به صدره عنها ، وكأنه أمامه منارة يبحث بها عن بر :

- بعد ما كنت أتمنى وجود أم في حياتي .. أصبحت العنها ولعن كل ذكرى جميلة كانت لها .. لا أستطيع اتجرا وأتخيل أن هذه المرأة.. هي أمي

رأت نور في عينيه ملامح الكره والغضب ولمست فيه لحظة ندم تسأله عنها ، رفع يده اليمنى وكأنه متأسف:

- لم أستطيع أنسى أنني صفعتها على وجهها

فزعت وكأنها رأت شخص أخر ثم لمحت شئ أخر خصها تؤجل فيه العتاب ، شعرت حقيقي فيه بالجرح وكأنها ترى الشمس واضحة ، سندت على سور الكورنيش وأذنيها مع مالك :

- لا أدرى كيف صفعتها ! لكن عندما أتفاجئ أن أمي بهذا الشكل .. وجدت نفسي أنني ليس إلا أبن ....؟

ناظراً في اتجاه النيل من بعيد وكأنما يمده بالدموع مقابل كلامه :

- الله يسامحها كرهتني في كل يوم حلمت بها

نظرت نور في عينيه وكأنها تواجه بما يخشاه :

- وبعد ما وجدتها وتركتها .. ارتحت ؟

ابتعد عن السؤال وكأن الإجابة جريمة :

- ولماذا بعد هذا العمر تذكرت أن لديها طفل ؟

بكل هدوء أجابته وكأن نور وضعت نفسها مكان أمه :

- هي لم تنسي في يوم أن لديها طفل .. والذي من المفترض أن تحاكمه أولا هو عمك .. ثم بعدها تحاسب أمك .. الاثنين مشتركين في الجريمة .. وإن سامحت أحد فلابد أن تسامح الأخر

اندهش مالك :

- بكل هذه البساطة أسامح .. وأيضا تطلبي منى أنا أحاسب عمى بعد كل الذي فعله لأجلي !

تعجبت نور وسألته :

- أيضا هي لا تحاسبها مادمت لم تحاسب أحد

وشعرت بالبرد لفت يدها حول صدرها ، فخلع مالك معطفه ضعه على كتفها وطلب منها أن يخرج من ماضيه وحساباته ولو حتى الآن . فهزت رأسها وكأنها سمحت له ، فأوجدها متغيرة تنظر على النيل بعمق سألها وكأنه يلوم نفسه :

– أعلم أنني ربما ما كنت حكيت لكِ هذا الماضي .. حتى لا أصغر في عينيك .. لكن ..

أشارت أن يكف عن هذا الحديث ونظرت على يده اليمنى بين أصابعه تفتش عن خاتم خطبتها وأتت بالعتاب المؤجل وسألت عن اختفائه من بين إصبعه تاه مالك أمامها قليل تذكر زواجه العرفي من لينا ، نظر إليها وكأنه طفل صغير يخشى العقاب فعاد مسرعة مستند على الكذب :

– كان لدي تصوير كليب جديد .. فطلب مني مخرج العمل خلع الخاتم .. لكن الخاتم معي في السيارة

أتي لكي يذهب إلى السيارة ويهرب من هاتين العينين التي تكاد تتعمق بداخله وتخرج كذبه ، مسكت بمعصمه :

– أنا لا أكذبك .. لكن من فضلك حاول أن لا تخلعه من إصبعك على الأقل أن لم أكون معك .. صدقني هذا الأمر يجرحني كثيرا

ابتسم مالك مواعدها فنظرت في ساعة يدها بعد ما أدركت تأخرها قائلة :

– ممكن توصلني لأي مكان قريب أخذ منه سيارة الأجرة

تجد سهام العتاب موجه لها :

– تعتقدي ممكن أترك تعودي بمفردك في هذا الوقت للبيت !

عاتبته وهى ترجع معه شقاوة الحب :

– من الطبيعي لا .. لكن أخشى على نجوميتك

وكأنه لم يندهش بنظرة كلها غرور :

– أي امرأة الآن في الدنيا تتمنى مرافقتي... وأنتِ تريدين تركي وتستقلي سيارة الأجرة !

اتجهت إلى السيارة وهى ترمي له الكلام يجمعها :

– لأن .. جميعهن .. غيري أنا !

رد عليها بعد ما اقتربت من السيارة :

– للأسف هذه هي الحقيقة

وبقى في مكانه ، فتلتف له وكأنها تأمره :

– ستقوم بتوصلي أم سآخذ تاكسي

أسرع مالك منفذ الأمر ، فتح لها باب السيارة دخلت وهى تكتم في ضحكها ، قبل أن يشغل ماتور السيارة أعطها من " تابلوه " السيارة خاتم الخطوبة ومد لها يده وابتسم وهز رأسه وكأنه معتذر ، فهزت رأسها مبتسمة أنها تقبلت عذره ، فوضعت الخاتم في أصبع يده ، وكأنه أراد أن تسكنه هي لبيته .

مشي بعدها بالسيارة والكلام يتوه عنهم للخيال أخذهم لبعضهم في عالم الأحلام ، يتبادلوا طوال الطريق فقط النظرات والابتسامة .

قبل أن يدخل الحارة تطلب نور منه أن يتزلها هنا ، لا يلتفت لرغبتها ودخل الحارة وكأنه يرد علي لومها، خرج من السيارة وفتح لها الباب والأهالي من حوله التي كانت همست وتحدثت من قبل على انفصالهم تعجبت وحينما يروها ترتدي معطفه يقطعوا أي شك عن تدهور علاقتهم . نادت أصوات الشباب والأطفال فرحا من حولهم بـــ مالك ، مما طلت الجيران من الشبابيك والنوافذ والشرف وكأنهم يعلموا بوجود نجم شارعهم ومنهم دينا التي لوحت لـــ مالك وفي الجهة الأخرى أم نور التي لا تسعيها الدنيا سعادة من رؤيتهم سوياً بعد ما كانت تخشى رؤيتهم معاً في الشارع ، صافح مالك على كل المحيطين به ، مما أسعد نور قبل الناس التي واقفة بجانب المنزل منتظراه ونزلت بجانبها دينا التي مالت عليها نور بعناق وكأنها تشكرها ، طال واقفة مالك مع جيرانه وقام بالتصوير معهم ،ثم ذهب إلى نور ودينا التي تقابله بالعناق وأخذهم إلى داخل المنزل يأتي ليودعهم فسألته نور وكأنه تسير على استحياء :

– الم تصعد معي ؟

رن هاتفه المحمول قبل أن يجيب ويكون من لينا فحاول أن يثبت مالك وكأنه على حافة الجبل ، تغير وجهه وكأنه يتزحزح للوقع ، فسألته نور فقط بعينيها وكأنه رمته بسهم ، ابتسم محاولاً أن يبدل لون وجهه :

- الملحن يستعجل حضوري

نور مندهشة :

- الم تجيب عليه

كتم صوت الهاتف مالك :

- سأعود الاتصال به .. فعلى الذهاب الآن

أتت نور لكي تخلع من على كتفها المعطف منعها مالك :

- دعيه عليكِ حتى لا تتعرضي للبرد

أتي لكي يرحل أوفقته دينا وسألته :

- لازلت غاضباً يا مالك من عمك

وضع مالك يده على كتف دينا وعينيه في اتجاه نور قائلا :

- لا أستطيع أن أغضب منه فهو أبي قبل أن يكون عمي ... لكن حقا لدى أعمال كثيرة تشغلني الآن

ووضع قبلة فوق رأسها :

- تصبحون على خير

تركهم مالك وزحام الناس التي أزادت عليه تكدست حول سيارته ، فيطوع رجلين بمهمة الحرس الشخصي لإنقاذ مالك عن الناس وأدخله سيارته ، يجنبوه ازدحام الناس حوله ، خرج من الحارة ولينا مجددة الاتصال به ، نظر إلى الهاتف وهو لا يعرف يفكر في تدبير أمره من زواجه العرفي :

- ماذا فعلت بنفسي ؟

أعادة لينا الاتصال به فازداد عناد في عدم الرد عليها وكأنه يحملها الذنب كله .

* * *

شعرت لينا كزوجة بتغير حال مالك وأعذاره المتكررة كلما حاولت الاقتراب منه ، وبإحساسها كامرأة شعرت بوجود نور من جديد في حياته وكأنها النور المستحيل أن تطفئه من أيامه وتغلق شراع شرفته من الدنيا التي يطل بها عليها ، مر يومين ولن يكلمها كلمة واحدة ، ذهبت إلى شقته في ساعة متأخرة من الليل ، دخلت بمفتاحها فوجدته جالساً أمام التلفاز يتحدث في هاتفه المحمول مع أستاذ خالد وفي الجهة المقابلة جالس سامي منتبه مع التلفاز . اقتربت منهم وتجاه عينيها مسلط على مالك الذي يتجاهلها عندما رآها وأستمر في حديثه مع أستاذ خالد ، فقام سامي عنه بدل يرحب بها ، فجلست بجانب مالك انتظرت انتهاء المكالمة الذي آخذ فيها مدة طويلة ، حاول معها سامي جذب أطراف الحديث معه وهى أجابتها مجترة من الاختصار وعينيها مشغولة على مالك . الذي قرب من انتهاء المكالمة ، فقام سامي مدعي بمكالمة أحد أصدقائه . فنهي مالك المكالمة قبل مغادرة سامي الصالة وندا عليه :

- ممكن تعد لنا الشاي ؟

وكأنما أراده أن يعود مسرعاً لا يتركه بمفرده ، خشي مالك من مواجهة لينا خوفاً على مشاعرها فهو حامل منها الجميل وقام بنزع خاتم خطوبته من نور وإخفاءه منها . وقابلتها في لحظتها تعاتبه باندهاش بعد خروج سامي :

- لما لا تجيب على اتصالي طالما أنت تتحدث في الهاتف

وضع مالك الهاتف من يده واتجه يشاهد التلفاز قائلا :

- أنا الذي قمت بالاتصال بالمنتج لاستكمال أباقي أغنيات البوم الغنائي

وعاد إليها بنظرة خفيفة فسألها :

- سمعت إنكِ أوشكت أيضا من الانتهاء من ألبومك الجديد

أغمضت عينيها من ضيف جفاءه وأعاده فتحها فسألته :

- لماذا تبتعد عنى يا مالك ؟ ونسيت أننا زوجتك ولي حق فيك

أجابها بعصبية :

- لم أنسا .. لكنك أنتِ التي نسيتِ أنني أمر بظروف فوق احتمالي طاقتها .. ولهذا السبب تزوجتك

شعر مالك بعصبيته فنفخ في الهواء وكأنه يطرد غضبه وعاد وكأنه وطفل صغير هامس الحس :

- اعذريني

ركن رأسه على ظهر الكنبة ساكتاً وكأنه لا يعد متحمل الحديث ، شعرت لينا بضيقه فتبسمت في نفسها وكأنها عادت في عاتبها تصالحه ، اقتربت منه أكثر وضمت رأسه إلى صدرها مشطت يدها على رأسه ، فتنهد مالك بعمق يلمح عن حياته :

- دائما كنت اخشي من الغد .. لكن حاليا أصبحت أخاف من الأمس والغد

خرج سامي من المطبخ حامل صينية الشاي فتركت لينا غموض حياة مالك وأخرجت نفسها من منطقة ممنوع لها الدخول فيها . رغم أنه بين ذراعيها الآن لكنها علمت أن بينه وبينها أمد ، طلبت منه المبيت هذه الليلة معه . أخذ ثانية في التفكير مما نظر سامي له نظرة عتاب على تأخره

في الجواب فرد عليها مالك بالموافقة دون أن ابتسامة ، فبتسم مكانه سامي ووضع بعيدا صينية الشاي وطلب من لينا تحضير العشاء ، قامت لينا مرحبة ونظرت علي مالك قائلة :

- وأنا مستعدة

فرد عليها مالك بابتسامة كاذبة صدقتها لينا فتركتهم ، فأتى سامي جلس بجانب مالك وهو متجه بعينيه إلى لينا يراقبها إلى أن تختفي من أمامه فبدأ الكلام مع مالك بصوت منخفض فسأله :

- ماذا ستفعل معها ؟

وضع مالك يده خلف رأسه باحثاً عن حل :

- لا اعلم .. لا أستطيع أن اخذ قرار الآن .. أنا لا أرى إلا نور فقط

نظر سامي خلفه تأكد من عودة لينا فسأله :

- وطالما لازلت تحب نور .. لم تزوجتها ؟

التف مالك بجسده في تجاه ينغزه بنظرة ثاقبة :

- وأين كانت نصيحتك هذه وأنت تشهد على العقد الزواج العرفي !؟

بعد أن قام سامي وكأنه يهرب منه ، رد عليه سامي :

- يبدو عليك أنك أنت الذي نسيت .. أنت الذي اخترت بعد ما أكدت لي نسيانك لـــ نور .. تحب أيضا أفكرك بما قالته ؟

صاح فيه مالك :

- أعلم ما قالته جيدا .. والآن ادفع ثمن اخطائى .. ولم أعد أعلم ما عليا فعله ؟

وضع سامي أمامه الحل :

- انفصل عن لينا

ابتسم مندهش مذهول عينيه . فسأله :

- والمشوار الفني الذي خشيت عليه من نور.. أنت ولينا .. الآن نور لن تضره .. لم تبدل كلامك معي اليوم ؟

وقف سامي معاتبه :

- أنا لم أبدل كلامي .. ولكنك أنت الذي أخذت قرارك بإرادتك .. والآن أيضا أنا أجيبك على القرار الذي تريد أن تتخذه .. ولكنك خائف

قام مالك أمامه وكأنما يفي مواجهه ، فخرجت عليهم لينا بعد أن بدلت ملابسها مندهشة من نظرات أعينهم لبعضهم تسألهم وهى تلوح عليهم عن حالهم ، أجاب عليها سامي بابتسامة خفيفة :

- كنا نتحدث عن البرنامج .. مالك كان لا ينوى السفر لتكملة البرنامج

اقتربت لينا متوددة فسألته :

- ولماذا يا حبيبي لا تريد السفر ؟

نظر مالك على سامي وأعاد النظر لها بتنهيدة خفيفة :

- استطاع سامي كالعادة أن يقنعني بالعودة .. الم تعدى لنا العشاء ؟

شدته لينا وكأنها تخطفه لنفسها قائلة :

- عليك أن تساعدني في إعداد العشاء

فدخل معها مالك يساعدها ، حاول وقتها أن يكلمها على إنهاء العلاقة لكن خروج الكلام كالسير على الأشواك ، انقطع صوته كلما يفكر أن أقترب من النية ، حتى الجراءة في الخيال معدومة من الاقتراب ، وبقى صامتاً عن التفكير فيها ، بعد ما استمر في تخيل نور مكانها .

وكأنه ماضي في علاقته مع لينا بين رجلين ، جسده وقلبه لا يتقابلوا سوياً معها ، داخله إنسان أخر والثاني بعيداً عنه وكأنه لا يعرف نفسه ، في الغرفة قبل النوم فسألته :

- أشعر أنك تريد أن تقول لي شئ ؟

نفي بتحريك رأسه يميناً ويساراً وكأنه لا يوجد شئ، فاقتربت منه تنام بين ذراعيه ، وصعبت عليه الحكاية أكتر عندما تحدثت معه عن أمانيها وأحلامها وغلقت الأنوار لتسرقه لخيالها وكأنما أدخلته لروحها يرى مع الحلم :

- أتمنى أن أكون أم لطفل منك .. حتى يربطني بك أكتر .. ووقتها أوعدك سأعتزل الفن كله ولا أحد يستطيع يأخذك مني

رقداً مالك هاربا حتى من التفكير ومنها . استيقظت لينا على صوت رنين هاتفه المحمول ، نظرت بجانبها على مالك وجدته غارقا في النوم ، نظرت على الهاتف وكأنها أحست بالمتصل وكما توقعت وجدتها نور تأكدت مرة أخرى من نوم مالك وقامت تتسحب كاللص ، كتمت صوت الرنين وخرجت إلى الصالة ، نظرت على أسم نور وهي تجمع قواها وكأنها استعدت للمواجهة عدوها ، صنعت التثاؤب وبصوت دعي النوم ردت :

- الو

اختفت من على وجه نور الابتسامة التي حضرتها لتقول صباح الخير إلى اندهاش :

- أليس هذا هاتف مالك !

صنعت لينا في التثاؤب أكثر :

- نعم لكنه نائم .. تريدي أن أيقظه

أتي على بال نور مليون سؤال في ثانية ، ومن الصدمة فتحت باب التخيل وصوت ولينا في أذنيها كالشيطان وساوس :

- مالك أنت لأزلت نائم

سقط الهاتف من يد نور على الأرض، توزع أجزاء الهاتف بين قدميها كسقوط أحلامها من السماء ، نظرت بعينها المذهولتين على حقيقة الأمر وكأنما أبصرت لحقيقة وكأنها لا تصدق ، الخيط الذي ربط بينها وبين الحب يتفكك عقده بدمع عينيها .

ومن خلف الستارة ابتسمت لينا بشرت نفسها بالفوز بـــمالك ، فتلتفت تدخل الغرفة فوجدت سامي واقفاً ناظراً إليها وكأنه يستحقرها فسألته وهى لا تهاب الموقف :

- منذ متى وأنت هنا ؟

أقترب منها وأجاب :

- أنا هنا قبل خروجك من الغرفة .. لماذا ! والمسكين نائم يشعر بالذنب لأجلك

شدت لينا كرسي من مائدة السفرة فجلست قائلة :

- لأنني أحب مالك ولا أسمح لأحد أن يأخذه منى

تعجب بابتسامة ساخرة :

- لكنك سرقتيه من نور وأنتي تعلمِ أن مالك لم يحب غيرها .. ومستحيل يعشق إنسانة غيرها !

أجابت بكل كبرياء :

- وأنا التي تزوجته

ضغط على فك أسنانه وكتم غيظه قائلا :

- تقصدين أنكِ استغليتٍ ظروفه وتزوجتِ منه

قربت لينا رأسها منه وبكل هدوء أجابت عليه :

- وربما سأتفرق معي .. فنحن من هذا الوضع مستفادين .. ولا تنسى أني فنانة ولي اسم كبير في مجالي ربما أكبر من مالك .. ومثلما أنا استفادت من مالك هو أيضا استفاد مني وصنع شهرة على حسابي .. مثلما أنت أيضا استفادت عندما ساعدتني وقربتني من مالك

حرك سامي رأسه وكأنه تأسف فأقمت لينا تكمل كلامها :

- مشكلة مالك أنه فنان .. عنده موهبة حقيقة في زمن لا يحتاج للموهبة .. ونور تريد أن تغلق رأسه بإشعارات انتهت صلاحيتها .. وأنت الآن تعلم هذا .. سامي لو حقاً تحب مالك وتريد مصالحته .. من الأفضل تظل بجانبي .. لأننا كلنا في النهاية مستفادين

تركته ودخلت إلى الغرفة فمسك ذراعها فأوقفها وكأنه يهدها :

- وربما في النهاية نخسر نحن الثلاثة .. وأنتِ أولنا

ابتسمت بغرور وجذبت ذراعها :

- لا يوجد مكسب مستمر مثلما لا يوجد خسارة تدوم .. سأكمل نومي

عادت تخلد للنوم بجانب مالك وكأنها لم تفعل شئ مسحت رقم نور من قائمة استلام المكالمات وضعت الهاتف في مكانه وخلدت للنوم .

استيقظ مالك بعد العصر لم يجد بجانبه لينا نظر في ساعة هاتفه المحمول وهو يستنشق الزكام من أنفه ، فعلم من الوقت أنها خرجت .

نهض وهو يقوم بالاتصال بـــ نور، الهاتف الذي أصبح غير متاح له لا يبالى أمره الآن ، وضع الهاتف وأخذ حمام ماء ساخن وخرج معاود الاتصال مرة أخرى بها ، فندهش هذه المرة من إغلاق هاتفها ، أخذ يمشي في الصالة فأتى ليعاود الاتصال تفاجئه لينا بالاتصال به ، مشط يده على رأسه وكأنه هدأ ثم ضغط على نفسه أجاب :

- الو

صوت ناعم لينا :

- مساء الخير يا حبيبي

أجابها وهو يحاول صنع التجمل في كل حرف يخرجه وكأنه يتحدث مع أحدى معجباته ، هي المكالمة في أقل من دقيقة وعاود بالاتصال بـــنور فأتى عليه من الخارج سامي ، في يده تذاكر سفر فوجدا مالك مزدحم من ضيق ، نفخ ضيقه وكأنه يدخن سجائر . سأله سامي :

- بمن تتصل ؟

أنهى مالك المكالمة التي لم تكتمل وأجابه :

- أحاول اتصل بنور وهاتفها مغلق

أعطه سامي التذاكر وكأنه يتوه عن نور :

- ربما تكون عادت من العمل وأخلدت للنوم .. لكن لابد الآن أن نسافر هذه الليلة

تعمد سامي أن يبعده عن مواجهة نور ، أعاد له مالك التذاكر قائلا :

- المفترض السفر غدا وليس هذه الليلة

رد عليه سامي بعد أن نظر في الأرض وهو مسرع في حديثه يسرق نفسه من أمامه :

- تفاجأت أنه لا يوجد رحلات أخرى غير يوم الخميس المقبل

نفخ وسأله مالك وملامح وجه أذادت انكماش :

- ومتى السفر؟

سامي من بعيد :

- نلحق الآن نوضب أحقابنا

وقف مالك بمفرده لثواني محاولا استواعب الأحداث ، أعادة بناء تفكيره فدخل إلى الغرفة يحضر في حقيبة سفره والهاتف على أذنيه محاول اللحاق بـــ نور ، رمى القميص من يده على السرير وجلس بجانبه غاضباً ، أغمض عينيه فوجدا حل للوصول إليها ، قام بالاتصال بها على هاتف المنزل وأعاده وضع القميص في حقيبته ، فردت عليه أمها فسألها عن نور وهى مثله نظرت على غرفتها المغلقة طوال النهار قائلة :

- منذ أن عادت من العمل وهى نائمة

بنظرات وجهه يتحسس العطف قائلا :

- من فضلك أخبريها أنني الآن مسافر إلى دبي .. وسأكلمها حينما أصل

فدخل عليه سامي الغرفة نظر في حقيبة سفر مالك فوجدها لم تكتمل فقام بدل منه بوضع الملابس ، فأنهي المكالمة ونهى مع سامي حزم أمتعته بعصبية ظهرت عليه في غلق الحقيبة ، فسأله سامي :

- لقد أطمئنت علي نور .. ما الذي يشغلك

ترك له مالك غلق الحقيبة ورد عليه :

- تصرفات نور سوف تصيبني بالجنون .. أوقات لم يكن يهون عليها أن تنهى معي المكالمة .. وأوقات لم يهون عليها حتى تكلمني !؟

سامي بابتسامة سخرية :

- لديها حق ! الذي ترتبط بفنان لابد على الأقل يصيبها الضغط

ابتسم مالك ، فرفع سامي في وجهه حقيبة ملابسه بعد الانتهاء منها ليحملها ، وخرج قبله سامي من الغرفة ولازال الابتسامة على وجه مالك فأوقف وسأل سامي الذي غلق كل نوافذ الشقة :

- هل يوجد إشاعة جديدة تنقلها الصحف عني اليوم ؟

أتى عليه سامي وهو يتجول بعينه في الشقة يطمئن بغلق كل النوافذ :

- ونحن في الطائرة سوف نتصفح المجلات والجرائد

حاول سامي بعد وصوله مباشرة دبي يصلح ما أفسدته لينا ، ترك مالك وخرج لشارع يتمشي وقام بخداع دينا ببراءة مالك وما يشرحه تنقله إلى نور التي ملت من سماع شهود وكأنها أصبحت في دنيا الحب وكيل نيابة واقفة أمامها دينا كالمحامي البارع دافعت عن مالك قائلة :

- ممكن لينا تفعل أي شئ لتأخذ مالك منك .. وأنا لو في موقفك هذا .. لم لا كنت اتخذت هذا الموقف .. أنتِ تعلمي أن مالك يحبك ..حينما يعود اطلبي منه الزواج أو الانفصال .. وحددي بعدها موقفك الذي سوف يتخذه ؟

سألتها نور :

- وماذا كانت تفعل عنده لينا في الشقة ؟

أجابتها بسؤال :

- وبما تعتقدي لما ردت على اتصالك ؟

وكأن نور جمعت أحلامها من بين التراب فسألتها :

- بما تعنى ؟

أتى دينا تخرج الجواب من بين شفتيها توقفت عن نطق الحروف ، وتركتها دون استأذن تجمع هي في الإجابة . دارت نور حول نفسها وكأنها تدور حول مدار حياتها . تجد روحها وهى تفكر دون قصد جمعت هاتفها من حقيبتها وإعادة تركيب أجزاءه . ونظرت له وكأنها مترددة في أعادة تشغيله ، فمرت لحظة بعمرها كله وهى آخذه قرار فتح الهاتف ، فبعد أن فتفتحه رمته عنها بعيد لكن قلبها متعلق في سماع رنينه . بعكس مالك الذي لا يفارق الهاتف يده ، لا يستقر في مكان داخل غرفة الفندق ، نظر في الساعة أمامه وجداها اقتربت من الواحدة صباحاً ، وبين أن يعاود الاتصال مرة أخيرة أو يغلق الهاتف يتردد ، شعوره باليأس جعله يتردد في أعادة الاتصال . دخل

عليه سامي الغرفة رأى حاله فعلم أنه لم يسمع صوتها ، أتى مالك لغلق الهاتف ، منعه سامي لما علمه من دينا قائلا :

- اسمح لي أجرب حظي هذه المرة

أخذ الهاتف وقام بالاتصال ، فتركه مالك وذهب يرتب سريره ، فبتسم سامي من صوت الاتصال، فهمس لـــ مالك فلتفت له فأعطه سامي الهاتف راسم الأمل على وجهه ،لم يصدقه مالك ووضع الهاتف على أذنيه على مهل وكأنه يخشى الأمل الكاذب، سمع صمتها وكأنها شرب ماء بعد عطش طويل نطق في كلمة " الو " بكل روحه

تركه سامي بمفرده وتحرك مالك بحريته في الغرفة فقابل تنهيدة صدرها بلوم قائلا :

- بحثت في كل الصحف والمجلات ولم أجد خبر واحد عنى يجعلني لا أسمع صوتك !

نفخت نور وكتمت ما بداخلها وكأنها طوت هذه الصفحة مقابل أجابته . فسألته :

- هل عندك استعداد حينما تعود نتزوج أم لا ؟

تفاجئ وسكت أتت على باله لينا لكن سرعان ما عاد مسحها وهو فقط متخيل نور معه ، فسألته مرة أخرى بعد أن كادت تتراجع مره أخرى عن أحلامها :

- مالك لم تجب على سؤالي ؟

أخذ نفس عميق غاص به داخل أعماقه وكأنما أستنشق روح الحياة الجديدة ، امتلأت عينيه بالنور الذي وكأنما أضاءت له كل الدنيا أجابها بعد أن تطل من جديد علي الحياة :

- وأنا لست مستعد في خسارة يوم أخر من حياتي .. وأنتِ لم تشاركيني فيه أنفاسي

وكأن الطائر المكسور عاد يرفرف بجناحه يلحق في السماء، أعاد لها دنيتها وإنما لا تصدق . فعادت سألته :

- متأكد يا مالك ؟

ارتعش مالك من إحساس بين الفرح والخوف ورد عليها وكأنما يعبر عن كل جزء من جسده :

– أنتِ حلم العمر كله .. والحياة التي بدونها أكون مثل المحروم .. بدونك ما كان لجسدي روح

وتغيرت ملامحه من الحالة الذي يعيشها معها فسألها :

– لماذا أغلقتِ الهاتف كل هذا الوقت .. وأنتِ تعلمي أنه جسر الحياة لي في بعادي عنك ؟

امتصت شفتاها وكأنها ضغطت على نفسها وبابتسامة كتمت غيظها وتنفست رحيق الورود قائلة :

– لقد واقع مني الهاتف وأعاده تصليحه

اطمئن مالك بعد رحلة يوم عذاب وعادت روحه لعش الحب وكأن الغربة ليست في السفر لكن في هجر قلبه عن نور . فنست نور دمعها ورجع الحب لبيته ، لكن القمر ليس لكل البشر مع أنه لكل البشر ، ليس كل البشر من يشقوا السماء بأحلامهم ولا يروا النجوم ، فالعيون تنظر مما بداخلها والإحساس يقلب السماء بما يشعر به بين النجوم وأفاق الليل كحساس الحياة بعد الموت .

كما هي الآن أمه المربية بحاله الصمت وكأنها لازلت تائها عن الحياة . السماء التي شهدت حاله الحب الآن. تستمع الآن لوجع أم غير قادرة علي التحدث ، ولا حتى تلوم عن وجعها .

مع أنها في اليوم أكثر من ألف مرة وضعت كف يدها على وجهها مكان ما صفعها مالك لكنها لا تتحسس ألم بل تلمس حنينها من مكان أصابع يده ، مسروقة من اللهفة للوجع الاشتياق ، بين رموشها تضم عمرها كله وكأنها تعصر الندم منه.

أتت لزيارتها الطبية هدى ومعها مي التي ضغطت عليها لزيارة ، حاولت المربية التجمل في همها في ابتسامة مزيفة كما فعلت مي في رسم نفس الابتسامة وهى تسأل عن صحتها ، جلست بجانبها

الطبيبة هدى كالأخت التي تطمئن على أختها سألتها عن حالها ،أجابتها بما حاولت أن تقنع به نفسها :

- الحمد لله

جلست مي بعيد عنهن في وادي خاص بها ، شغلت وقتها في دخولها على الانترنت من هاتفها المحمول فقالت لهن وهى تقرأ رسائل بريدها الكتروني :

- مالك سوف يغنى الليلة في برنامج ستار الشرق

نظرت إليها الطبيبة تعاتبها فأكملت مي لم تدرك نظرات العتاب لانشغالها بالتصفح :

- كما يوجد عنه أشاعه عن زواجه العرفي من المطربة لينا

صاحت فيها الطبيبة هدى باسمها لتفيق من غيبوبة مشاعرها فتفهم مي وأجابت مبررة :

- أنا لم أقصد .. كل ما أردته فقط أن أخبر" الدادة " أخر أخبار مالك

أجابتها غاضبة :

- ممكن تسابقيني على المترل

فقامت مي ونظرت على المربية نظرة عتاب وكأنها تلومها ، فخرجت وكأن تدفعها قوة نار تطردها من الغرفة ، علقت الباب خلفها بقوة . وبعتاب خفيف من المربية إلى الطبيبة :

- مي لم تقصد مضايقتي

تركت الطبيبة هدى كل هذا الكلام وسألتها :

- الم تنوى الخروج من هنا ؟

نزلت المربية برأسها على صدرها وكأنها اعتذرت عن الإجابة ، فقالت لها الطبيبة :

- أنا مقدرة حالتك النفسية .. لذلك أنا بطلب منك الخروج

على نفس حالها أجابت :

- كنت منذ قبل أتنفس الحياة فقط لأجله .. والآن لمن أعيش ؟

حاولت الطبيبة التماسك قبل أن تنحرف معها في تيار الحزن قائلة :

- مالك فنان وربما يكون مثلك يتعذب .. وسوف يعود إليك صدقيني

حركت شفتاها وأغمضت عينها :

- يارب

واتجهت بعينيها إلى نافذة الشباك وكأنها تتحدث مع القمر :

- أنا لا احتاج شئ منه غير حضنه .. وبعد ذلك لم أطلب من الحياة يوم أخر .. أنا عشت سنين أتمنى المسه وعلى هذا الأمل صبرت .. ليته ما صار فنان مشهور .. ولا أراه أمامي في تلفاز أو مجلة وأنا لا استطيع لمسه

ربت الطبيبة على يدها قائلة :

- أن كان لم يكن فنان مشهور ما كنت علمني مكانه

ردت منكسرة :

- ولا كان هدم الأمل الذي عشت عمري كله في انتظاره .. حتى الصبر الآن لم يعد يصلح حتى ارتكن عليه كما كنت ... إن كنتِ في بمكاني ماذا كنتِ فعلتِ ؟

أجابتها بعد لحظات :

- ما كنت فقدت الأمل بالله

خرجت الطبيبة هدى من الغرفة وقلبها وفكرها كله مشغول في مساعدتها وأستمر في التفكير طوال مرورها على جميع الأقسام ولم يأتي لها أي فكرة وكأنها دخلت بفكرها مغارة

أنهت مرورها وعادت لتودع المربية فوجدتها غارقة في النوم ، نظرت عليها وهى في مكانها على عتبة الباب تتأسف على فكرها المسكين في مساعدتها .

التفت للخروج فلمحت هاتفها المحمول ، فواقفة وعادة التحديق فيه بعد أن اكتشفت باب الخروج من المغارة ، قلبت في سجل الهاتف فوجدت رقم مالك على حاله في الأرقام المستلمة وكأنها استخسرت على نفسها أن تمسح رقمه ليبقى لها حنين موصول مع أبنها ، سجلت الرقم وخرجت في صمت .

فاقت المربية على صوت غلق الباب ونظرت على ساعة الحائط تذكرت ميعاد إذاعة البرنامج فقامت بعد تردد بفتح التلفاز تنتظر مع المشاهدين مالك الذي سوف يغنى في هذه الحلقة في المرحلة الأخيرة

(باب النجوم) . في هذه المرحلة مع كل حكم ثلاث متسابق ، وتنقسم إلى ثلاث أجزاء . الجزء الأول هنا سيقوم الجمهور المتابع لكل متسابق باختيار ثلاث أغنيات للمتسابق سوف يؤديها على فترات ، بعد أن وضعت الإدارة عدة اختيارات أغاني لكل متسابق ، وهنا الجمهور وحده سيكون الحكم النهائي في تصفية المتسابقين .

والجزء الثاني من باب النجوم يضع فيه المتسابق مجموعة أغنيات من اختياره ويترك الاختيار للجمهور . أما الجزء الثالث سيغنى هنا المتسابق المتبقي من كل حكم ثالث أغاني على مدار ثلاث حلقات وتكون آخر أغنية صنعت خصيصاً له من كلمات وألحان من اختياره .

جمهور مالك اختاروا له أغنيته التي سوف يؤديها ، لكن مالك مصاب بأرق الماضي ولغز الحاضر ، بين صورة أمه وحياته بين لينا ونور ترميه في النار ، يشده حنين وكأنه يراه محرماً يتوه مع حاله ، حتى وهو على المسرح يؤدى أغنيته بفكره المشتت لا يصل للمستوى الذي انتظره الجميع حتى الحكام الجالسين اهالوا عليه بأفظع النقد ومر في هذه الحلقة بأسوأ أداء ، جعل الكل مندهش ، خرج مالك من الحلقة رافضاً التعليق ، حياته التي تنتظره أصعب من فوزه أو خسارته في البرنامج . لكن حظه في البرنامج لازال متوقف على تصويت الجمهور .

– ٦ –

في خلال هذا اليومين قسي مالك على نفسه وتغلب على يومه في انشغال يومه كله بين مؤلفين وملحنين وأخيرا عند منتج شركة الأغاني أستاذ خالد ومعه سامي في حضور جلسات فيلمه الجديد يعطيه منتج شركة الإنتاج السينمائي ميعاد التصوير ، فاعترض مالك على تحضير الفيلم الشهر القادم لانشغاله بالزواج الذي تم اتفاقه مع نور خلال هذا الشهرين .

فوجدا الضغط عليه كنزول المطر من السماء وكلمه منتجه بأن تحضير الفيلم لا يستغرق أكثر ثماني أسابيع ليلحق بموسم الصيف ، وفرصة صدور مع الفيلم البوم الأغاني الخاص به ، وسوف يقوموا بتصوير الفيلم عقب انتهاء البرنامج . أنهي حديثة بالموافقة مع رن هاتفه المحمول برقم غريب قام بالرد عليه فيجد امرأة سألته :

– أنت مالك ؟

– من أنتِ ؟

قدمت نفسها :

– أنا الدكتورة هدى التي تعمل لديها أمك

فستأذن مالك من حوله وقام يبعد عن أذنيهم :

– وماذا تحتاجي مني ؟

أجابته :

– الأمر الذي أريده منك لا يصلح فيه التحدث عبر الهاتف .. حينما أقابلك سوف تعرف كل شئ

منفاخا مالك الضيق :

- لا يوجد شئ بيني وبينك

جلست الطبيبة هدى على كرسي مكتبها قائلة بحدة :

- لدي كلام جديد ومهم وأظن أنك لا تحب سماعه من الجرائد

صاحاً مالك وهو يضغط على صوته يكظمه بين أنفاسه :

- ماذا تريدون مني ؟

تجنبت عصبيته بهدوء :

- عندما أراك ستعرف كل شئ .. وصدقني ستكون هذه أخر مقابلة بينا

فكر لثواني ثم أجابها :

- ممكن أقابلك هذه الليلة حتى انتهى من هذا الكابوس

دخلت على الطبيبة هدى في مكتبها ممرضة تعطيها إشاعة فنظرت عليها وهى تجيبه :

- وأنا سأكون في انتظارك في أي وقت

أعطته عنوان المستشفي ، فنهي مالك المكالمة في لحظة دخل سامي عليه ، رأى حاله المتغير من المكالمة فسأله :

- مع من كنت تتحدث؟

أجاب عليه وهو لا يصدق ما فيه :

- المرأة التي تعمل عندها...

وسكت لا يستطيع أن ينطق اسمها فكمل له سامي :

– أمك

رد عليه بالإشارة وأكمل مالك :

– سأذهب لمقابلتها هذه الليلة

سأله سامي :

– ولينا ماذا تفعل معها ؟

أغمض مالك عينيه وكأنه في كابوس يتمنى أن يفتح منه عينيه قائلا:

– سأمر عليها حتى أنهى معها علاقتنا

وضع سامي يده على كتف مالك :

– تريد أن أكون معك

اكتفي بنفسه لنفسه الغريبة وترك سامي يكمل باقي أعماله . وذهب لشقة لينا ينهي ما لا يعد قادر على تحمله . التي قابلته بالأحضان ، لا يفكر مالك أن يضع يده حول رقبتها ويضمها إلى صدره ويبدلها اشتياق أحضان الأزواج وكأنه تمثال ، أراد أن ينهى هذا الدور الذي يمثله . شعرت بجفاء شديد فابتعدت عنه وهى بعينيها تسأله ، تجمد مالك في مشاعره وأجابها :

– يجب أن ننفصل عن بعض

وكأنها كانت تتوقع هذا اليوم فسألته ساخرة :

– لأجل نور ! تريد الانفصال عنى لأجلها .. وتترك فنانة أنت لم تكن تحلم في يوم بمقابلتها

شعر بالإهانة فبدأ يتجرأ وصرح عن ما بداخله دون تلجلج :

– أنتِ تعلمين منذ أن تقابلنا لأول مرة وأن نور هي كل حياتي .. وأنا لم أركض خلفك .. أنتِ التي اقتربتِ منى ولست أنا ..

صرخت في وجهه :

- هل هذا جزائي أنني أحببتك يا مالك ؟

كالمنكسر أجاب :

- لهذا السبب أرادت البعد .. حتى لا أظلمك أكثر من ذلك .. نور ليست فقط إنسانة أحبها بل حياه من اجلها أعيش واحلم

جلست لينا وضعت يدها فوق رأسها ونزلت بذقنها تلامس صدرها وكأنها نظرت على الأرض فاقترب منها مالك لمس يدها من على شعرها فهزت رأسها ترمى يده عنها قائلة :

- من فضلك اخرج من هنا واتركني بمفردي

حاول الحديث معها فصاحت :

- أرجوك اتركني الآن

وقف مالك للحظة فسمع لرغبتها ينفذها ، خرج وهو مشفق من وضعها لكن تجمد ورأى نفسه كالطبيب الذي جرح ليداوى . وتبدل الوضع ليصبح بعد دقائق سفاح يجرح ليقتل .

أنتظر الطبيبة هدي في مكتبها وأمامه كوب عصير ، دخلت عليه الطبيبة وهى تعتذر عن تأخيرها ، فقال لها قبل أن تجلس على مكتبها :

- من فضلك قولي لي ماذا تريدين .. لدى أعمال كثيرة

استندت الطبيبة هدى بكوعها على المكتب قائله:

- ليس أنت وحدك الذي تعمل في هذه البلد .. أنا أيضا عندي مشغولة وربما أكثر منك

تمالك أعصابه قائلا :

- ممكن لأجل وقت حضرتك الثمين أن تتحدثي مباشرة .. وتعرضي طلباتك

اندهشت قائلة :

– طلباتي ! أتمنى أن لا تعتقد أن سبب لقائي معك حتى أقوم بمساومتك .. انظر حولك حتى تعرف مع من تتحدث !

سألها مالك بصوت يدعى فيه الهدوء :

– ماذا تريدين ؟

أشارت له أن يشرب العصير وسألته :

– لو شعرت بوجود مريض سيموت ويحتاج لنقل دم حتى يعيش .. ماذا ستفعل ؟

أبتسم مالك لسخافة السؤال ثم أجابها :

– لا أظن أني هنا في برنامج من سيربح المليون

تجاهلت سخافته وسألته :

– خائف من الإجابة أو ليس عندك جواب " يا بشمهندس "

ينقل كوب العصير من مكانه ويرد عليها بسؤال:

– الطبيعي على أي إنسان ماذا يفعل؟

قامت من مكانها وجلست أمامه قائلة :

– أنت تعلم ماذا يفعل ! لكنك تخشى الجواب .. لأنك تعلم أن يوجد إنسان روحه وأماله وكل حياته متعلقة بك

ابتلع في ريقه المرار من الأيام :

– الروح والحياة بيد الله وحده

واقف ينهي الحديث فأوقفت أمامه :

– مندهشة من إنسان مثلك !... كيف يكون فنان بمشاعر وإحساس !

نظر لها وكأنه أراد افتراسها :

– وألم تندهشي من أم رمت أبنها لأجل نزواتها .. أتمنى أن تكون هذه أخر مقابلة بينا

مسكت بمعصمه وصاحت غاضبة في وجهه :

– أمك هنا في المستشفي راقدة من يوم ما صفعتها على وجهها

فك يدها قبل أن تيقظه من غفلته :

– أمي التي تتحدثي عنها ماتت منذ زمن بعيد .. لكن المرأة التي تتحدثي أنتِ عنها... فا هي امرأة لا أعرفها

بابتسامة أهانه قالت له :

– لا أعلم كيف صرت فنان وأنت معدوم الإحساس والرحمة .. أخرج بره مكتبي

وفتحت له الباب ثم وقف تذكر شئ وكأنه يبرر ما يفعله أمام عينيها قائلا :

– أنا أكثر إنسان أشتاق لحض أمه .. لكن حينا وجدت أن هذا الحضن رماني .. شعرت بأنني إنسان دون قيمة عنده .. أنا ضحية ولست جاني .. أنتِ قمت بتشخيص المرض كطبيبة ولم تعرفي سببه

ترك المكتب وبقت الطبيبة هدى مرتكنة على الباب لثواني ، تلملم في نفسها وكأنها لا تعرف تتأسف على مقابلته أو تشفق عليه ، خرجت من المكتب تنبه على الممرضات بعدم الهمس عن حضور مالك المستشفي .

أقترب مالك من المصعد وهو يكاد يطير من على الأرض وكأنه هارب من مطاردة ، دخل المصعد وضميره يوجع فيه وكأنه يضرب في صدره ، وصل للدور الأرضي وقدمه رافضة الخروج وعناده

يبحر بتيار موج عاصف يخرجه من المصعد ، يسير بخطوات ثقيلة وتيار ضميره حاول معه عدم الإبحار ضد التيار .

لمح مالك رقم هاتف المستشفي وضعه على هاتفه وكأنه خدر ضميره ليخرج من المستشفي ، يبقى في سيارته جالساً أمام المستشفي وغصب عنه دموع عينيه لا تتحمل البقاء في عالم الكبرياء .

طلب المستشفي وسأل عن حالة أمه وكل ما علماً أكثر عن حالتها الصحية كلما أذاد الغمام بداخله لتمطر عينيه أكثر ونظر بشدة على المستشفي ، أخرجه صوت الهاتف من اتصال نور لكن حزنه لازال بداخله أجاب عليها وهو يسير بالسيارة ، ومع دموعها أيضا سألته :

- أنت تزوجت لينا عرفي

لا يجيب واستمر في القيادة وعينيه على أمه تشغل كل كيانه وصورها وهى أمامه يصفعها على وجهها تتكرر أمامه ، نور تعيد عليه مرة أخري نفس السؤال :

- مالك أنت تزوجت لينا عرفي

وكأنها وأمه يطبقان على نفسه المخنوق ضغط على قدمه يزيد من سرعة السيارة أكثر وكأنه يسرع ليبحث عن هواء يتنفسه ، ولم يشعر أنه يتجاوز السرعة الجنونية وكأنما أراد أن ينتقم من نفسه ، صوت نور في أذنيه يحركه أكثر بل أدراك فقالت له :

- على كل حال لينا كلمتني وأخبرتني بزواجكما العرفي .. كل شئ بنا انتهى

وكل ما يشغله وسرق فكره وباله حالة أمه ، لا يرى سواها أمامه فانعدمت رؤيته عن من حوله فسمعت نور صوت اصطدام شديد ففزعت بقوة وتنفض من مكانها.

دخلت سيارته في سيارة أخرى قلبته على الطريق ، وكأنما أجابها ، نادت عليه في الهاتف التي كادت تغلقه في وجهه بصراخ ، فتجد الخط انقطع صرخت بل وعى بعد أن علمت بحادثته.

أعادة أول سيارة إسعاف للمستشفي مالك مرة أخرى على جسده بين الحياة والموت ، مما لا تصدق الطبيبة هدى الحادثة تركض نحوه وتتأكد . فأمرت بخفاء الأمر عن أمه ودخلت معه غرفة

العمليات وكأنها شعرت بالذنب وكأنما هي السبب فيما حدث له ، وعلى الحال في الخارج نور شعرت بنفس الذنب وسامي الذي يتكلف بالذنب كله .

* * *

نجي مالك من الحادثة بأعجوبة وأنتقل لغرفة العناية المركزة فاقد الوعي ، يتوافد الناس من أهله والصحافة والأعلام والمعجبين بصوته ، وكأن النجومية تبحث عنه حتى وهو راقد بين الحياة والموت . بدأت تصرفهم الطبيبة هدى بعد أن تطمئن الجميع على حالة مالك الصحية ، وبقى معه أهله . أفاق من الغيبوبة بعد ٦ ساعات وبجانبه الطبيبة هدى في حالة قلق ومعها الطبيب المعالج ، دخل سامي ونور والعم ودينا ، التفوا حول السرير . ومالك في حالة توهان ، نظر في أعينهم جميعا وكأنه يحاول الاستيعاب لكن لا يقدر.

عين الطبيبة هدى تترقبه بشدة وانتباه وما كانت تخاف منه أعلن عنه ملامحه ، وجدا مالك نفسه في هذه الغرفة كعابر سبيل لم يعرف أحد في الغرفة ، نظروا جميعا إلى الطبيبة هدى التي أخرجت ما كانت تقلق منه :

- مالك من أثر الحادثة.. فقد الذاكرة

قبل أن يتصدر الفزع على وجواهم تتدخل الطبيب المعالج قائلا :

- لكن هذه حالة مؤقتة.. وممكن أن تعود له الذاكرة في أسبوع أو شهر أو سنة .. على حسب حالته .. لكن أهم شئ هو إبعاده عن المشاكل .. لأنه كان من الواضح أنه يمر بظروف نفسية صعبة

خرجت الطبيبة هدى على أثر حديث الطيب بعجل ووجهها العبوس الملئ بالقلق تبدل بالأمل والفرحة تكاد لا تصدق الفرصة ، تقدمت في خطوها ولا تستطيع حتى الوقوف لتجيب على

الممرضة وذادت في سرعة خطوها أكثر ، دخلت إلى غرفة الأم فتجدها على الأرض تصلى . صبرت على نار لحين أن تنهي الصلاة فواقفة أمامها الأم تلم في سجادة الصلاة ، وكأنها شعرت بشئ نغز صدرها . فسألتها :

- ماذا حدث يا دكتورة ؟

ابتعدت عن الإجابة وجذبتها نحوها فسألتها :

- الم كنتِ تتمنى أن ترى مالك ؟

جلست الأم وكأنه الأمل المستحيل حتى لم تجيبها عن شئ ، خافت أن تحلم به مرة أخرى ، فأجابتها الطبيبة هدى على سؤالها وهى تخطف قلبها :

- مالك هنا ؟

وقبل أن تركض الأم خلف فرحتها استوقفتها الطبيبة هدى والوجه امتلأ بالخوف :

- لكن ! هو هنا في حادثة

وضعت الأم يدها على قلبها قبل أن يقفز من صدرها قائلة لنفسها :

- كنت أشعر بشئ حدث له

فعاد لوجه الطبيبة الأمل ترمي عطره عليها :

- لكنه تماثل للشفاء .. تعالى معي حتى تطمئني علي مالك

جرت الأم بلهفتها على الباب لكن أوقفها الخوف وقالت وهى تزحزح الكلام من على لسانها :

- هو يعلم أنني هنا ؟

ابتسمت الطبيبة هدى وأخذتها من يدها ، سارت بجانبها الأم وهى لا تستطيع الجمع بين لهفتها والخوف من لقاءه ، لا تدرى قدميها أن تطير من على الأرض أو تتثاقل من الخشية .

عند باب الغرفة واقفة مترددة في الدخول، فدخلت قبلها الطبيبة هدى ، واقفة بعد عتبة الباب ونادت عليها أن تتدخل . فظهرت بعد ثواني بد أن مددت يدها الطيبة وجذبتها ، نظر العم إليها بافتراس وقبل أن يتكلم قدمتها الطبيبة هدى:

– أمك يا مالك

فلم يظهر مالك اندهاش ، لكن تعجبه واضح عليه من خوفها في الوصول إليه ، مما حاولت الخروج من الغرفة فأجابتها الطبيبة هدى على خطوتها المتراجعة :

– مالك عنده حالة فقدان مؤقتة للذاكرة .. لكن أن شاء الله سأتعود له مع الأيام.

أندهش وسألها :

– لما أنتِ واقفة بعيد عنى يا أمي ؟

وكأنها واقفة تتخيل ما تسمعه ، فبكت عينيها من كلمة عاشت لها عمر طويل ، تعشمت أذنيها طوال العمر في سماعها ، اقتربت بهدوء والدموع تكثر في خطوة قدميها القليلة بينهم ، وكأنما تسير حافية القدمين على الأشواك ، حتى نبضات قلبها تنبض بلحن حزين ، وتكثر حينما كرر مالك ناده باسم أمه . لمست يده على خوف ، تملي أصبعها من كف يده وكأنما تحتضن كف يدها بكفه ، تتجرا وتلمس وجهه . ويد نور ربت على كتفها شجعتها، استمرت لثواني تتأمل وجهه ولا تستطع تحمل الصراعات النفسية ، تنقد كصاعقة الكهرباء تجذبه في حضنها ، غطته بدمعها وكأنها تسقيه عطش الحنين التي أظمأت منه ، ليالي تجنيها سنين وسنوات ، زراعة الصبر التي ألقى الزمن بذرها تلقي حصادها من حضن اشتاقت له عمرا . حاول يهاجمها العم فواقفة أمامه الطبيبة هدي صدته بهمس قاتل :

– أن كان يهمك شفاء مالك لا تصدمه بمشاكل نفسية تجعله في الأخر .. لا يتذكر أحد بعد

فسألها بغيظ لم يعرف يكتم ناره من عينيه :

– من تكوني ؟

أجابته وكأنها تفتخر بنفسها :

- صاحبة المستشفي والمسئولة عن حالة مالك

دخلت الممرضة مسرعة قائلة :

- الصحافة والأعلام مصممين يطمئنوا على مالك

فرد عليها سامي :

- سأتحدث أنا لهم

وأخذ الممرضة وخرج فنظرت الطبيبة هدى على نور ودينا فسألتهم عن أنفسهم وكأنها تريد أن تقدمهم للأم الغائبة مثل مالك عن هذا العالم :

- ما صلة التي تقربكم بمالك

أجابتها دينا :

- أنا ابنة عمه وأكثر من أخته و نور خطيبته وحبيبته

فزعت نور وكأنها أرادت تتجنب هذا اللقب ، نظرت على مالك تلومه لكنه لم يعد مستوعب اللوم والعتاب ، فتجد يد الأم في يد نور تبدلها شعور الحب ، وابتسامة نور لها بفرحة لعودتها للحضن أبنها .

أنتهي سامي مع الصحافة والأعلام ، وأتجه للحديث بإنفراد مع لينا فهمها حالة مالك وطالب منها مراعاة حالته وظروفه الصحية قبل الدخول عليه ، سمعته لينا على تسرع لتدخل تطمئن على مالك ، أخذت مكان أمه بلهفتها ويده الأخرى ضمتها في يدها تطمئن عليه ، لم تطيق نور التحمل تركت الغرفة غاضبة ، خرجت خلفها دينا تستوقفها وكأنها تتوسل إليها :

- الم تسمعي ما قالته الدكتورة عن حالة مالك ؟ ثم هذا مالك .. لا تجعلي إنسانة تأخذه منك

أرادت نور أخبرها أنها هي التي الآن تسرق مكانها لكن كتمت بداخلها قائلة :

- من فضلك اتركيني الآن وأعدك سوف أتى في الغد

فتتركها نور قبل أن تدخل في مناقشة طويلة وعادت دينا للغرفة تجيب على سؤال مالك عن نور ، قائلة وكأنها توجه الجواب إلى لينا :

- ستعود ولن تترك

ضغط على رأسه الملفوفة بالشاش حاول أن يعصرها ، باحثاً عن شئ يتذكره قائلا :

- لا أستطيع أن تذكر أحد منكم ؟

أبعدت الطبيبة هدى يده عن رأسه قائلة :

- كل ما حاولت الضغط على نفسك لا تستطيع تذكر شئ .. لا تنسى أنك منتهى من عملية كبيرة منذ ساعات قليلة .. ارتاح الآن

صرخ في وجهها :

- من أنا ؟

أجابته :

- أنت مالك.. فنان ومطرب مشهور .. وأصبح لك جمهور من جميع أنحاء العالم

هدأ مالك وبنظرة ضعف سألها :

- سأتعود علي الذاكرة مرة أخرى .. ولا هذا مثل كلام الأفلام تحذريني به فقط ؟

ابتسمت الطبيبة هدى وسألته :

- ومن أعلمك أن هذا الكلام يقال عنه في الأفلام ؟

أغمض مالك عينيه يفكر عن إجابة فأراحته من البحث قائلة :

- أنا لا أحتاج منك إجابة .. لكن أطمئن شفاءك مسالة وقت وتتعافي نهائي

دخل عليهم صاحب شركة الإنتاج الفني مستر أسعد وأستاذ خالد والمهندس أسامة وكأنهم كآبهات اجتمعت بقلب واحد حول مالك ، أطمئنوا من الطبيبة على حالته وعرض عليها مستر أسعد السفر للخارج لعالجه . طمأنته الطبيبة هدى أن تجهيزات المستشفي هنا مثل أي مستشفى على مستوى العالم ، فهم سامي من عين مالك ماذا أراد !

فبدأ يقدم لـــ مالك دور كل واحد في صناعة حياته الفنية وفي عقب انتهاء سامي من الحديث بدأ المهندس أسامة اقتراحه قائلا :

- المهم لا أحد غيرنا هنا يعلم بحالة مالك .. خلال فترة قصيرة من نجاح مالك جعل له أعداء كثيرة يتربصوا به

سأله سامي متعجب :

- وكيف يستطيع مباشرة عمله وهو لا يتذكر شئ !

أجابته الطبيبة هدى :

- لم تأثر الحادثة على موهبته كفنان .. يمكن بالعكس عودته لعمله سوف تساعده على استرجاع ذاكرته

أكمل عنها المهندس أسامة :

- لابد أن يخرج مالك من هنا ويستأنف حياته الفنية .. السباق الذي يجرى فيه لا يحتاج لتوقف

وبعد وقوف أستاذ خالد صامتاً كثيرا أقترب من مالك :

- مالك سيكمل كل شئ كما كان عليه من قبل .. والبرنامج سوف يكمله وسوف أكون بجانبه خطوة بخطوة

وجدا مالك الحب يتربص في عيون كل من حوله وخاصة أمه ، رأى أكثر من الحب بحب وكأنما السماء كلها لا تظل أحد غيره .أخر من تغرب عينيه وأول ما تشرق تكون عليها ، تقاسمت معه هواء الغرفة أكثر من صدره وكأنها مسكينة تستغل الجنة قبل أن طردها منها .

بقت نور التي لم تحدثه كثيراً وكأنها لم تكن هنا ، طوال الوقت كظل خيال ، حاولت التغلب على جرحها وترضى بـــ مالك الجديد وكأنه كطفل بدأ عامه الأول في الحياة .

فلم تستطيع إلا الوقوف حتى يسترجع ذاكرته . للإنسان الذي غشها وخدعها ، فعلت كالمريض المحكوم عليه بالإعدام فتقوم بشفائه لتنفذ فيه الحكم ، أراد مالك معرفة بداية علاقته بها ، فأجابته :

- علاقتنا بدأت لأننا كنا جيران

فسألها :

- وبعد هذا ؟

وكأنها تسخر:

- تم خطبتنا

أحس مالك من نبرة صوتها بوجع وأسى عميق ، فنظر على خاتم خطوبته بين إصبعها فلاحظت نور وكأنها هي حتى اندهشت من وجوده ، فتلفه بين إصبعها وكأنه يؤلمها رد مالك :

- أسوء شئ أن لا يستطيع الإنسان تذكر ماضيه

وضعت أمه يدها فوق يده قائلة :

- أن شاء الله ستتذكر كل شئ

وعادت ناظرة في دعوها وكأنها تلوم نفسها ، دارت عينيها وكأنها تبحث عن دعوها لتستردها . دخلت الطبيبة هدى ومعها أبنتها مي التي انقدت على مالك تصافحه بشدة وإعجاب ، فنظر مالك في وجهها فردت عليه الطبيبة هدى بابتسامه :

- أنت أول مرة تلتقي بها .. هذه أبنتي

ردت عليها مي :

- لا تقابلنا من قبل أنا والدادة

مما سببت في فزع أمها وأمه ، فردت الطبيبة هدى وكأنها تسابق مالك في السؤال :

- تقصد مي أنها قابلتك مرة في حفلتك الأخيرة .. مي من أشد المعجبات بك

ترك مالك جواب الطبيبة وتقصى أثر ما قالته مي ، الذي بقى منه في صدى أذنيه :

- " دادة "

ونظر على أمه لتجاوبه ، فنظرت مي بذهول إلى أمها ، فتحولت الغرفة للحالة من الصمت تبادل فيها الجميع النظر لبعضهم، فقامت نور من مكانها كالمنقذة واقفة أمامه تجيبه بقسوة :

- أنت لم تلد فنان مشهور وغنى .. قبل ما تنتقل تسكن الأحياء الراقية كنت ساكن في حي بسيط .. وكنت تعمل مع عمك في مخبزه .. مع أنك خريج هندسة .. فهمت ؟

حرك رأسه وكأنه يطيع أمرها وعاد ليطرد حالة القلق من الغرفة فسأل الطبيبة هدى :

- متى سوف أخرج من هنا ؟

ردت عليه الطبيبة هدى بعد أن رجعت أنفاسها إلى صدرها :

- يمكن أن أسمح لك بالخروج غدا .. لكن سنكون على اتصال متواصل لإتباع حالتك .. هيا يا مي

فنظرت مي إلى مالك تسأله :

- ممكن أبقى هنا مع مالك قليل

ابتسم مالك :

- ممكن طبعا

فتركتها الطبيبة هدى بعد أن حذرتها بصوت خافض بعدم الغوص مرة أخرى في حياة مالك ، وخرجت وخرجت خلفها الأم استوقفتها وعاتبتها بتوسل :

- لما سمحتي له بالخروج الآن

اندهشت الطبيبة هدى و سرعان ما عادت تتفهم سبب قلقها فقالت لها :

- مكانك سيكون مع أبنك أينما كان .. لأنه ليس من المعقول أن تتركيه أو يتركك.. ولا تقلقين حقيبة ملابسك ستسبقك على شقته .. أبن عمه كان هنا وكلمته

رأت الطبيبة هدى بداخل عينيها يدور الخوف فسألتها عن سبب خوفها فأجابتها الأم :

- خائفة تعود له الذاكرة مرة أخرى ويهجرني .. وفي نفس الحال أدعو الله بشفائه .. تعتقدين بما أدعو له؟

تبسمت قائلة :

- لا تسابقين الأحداث .. ربما يكون سبب الحادثة مدبر لكِ أنتِ

عجزت الأم عن وصف كلمة شكرا ، فخطفت يد الطبيبة لتقبلها فمنعتها وأعطت بدل من يدها حضنها قائلة لها :

- أنا مثلك أشعر بما تشعرين .. وبيتي مفتحو لكِ في أي وقت .. وأتمنى أن لا تعودي له إلا زيارة

* * *

أراد العم عدم ترك مالك بمفرده مع أمه فنتقل لسكن معهم ومنع أي فرصة لأمه ، يسير مالك داخل الشقة محاولاً التأمل في كل ركن ليتذكر شئ من ذكرى له هنا ، فيقف تائه كالأعمى في نصف الطريق يستنجد بأحد ، واقف ناظراً على كل الغرف وصاحاً بغضب :

- أين غرفتي ؟

تقدم سامي يفتح باب غرفته فدخل مالك على أمل تذكره الغرفة بشئ ، قلب في كل درج ربما يقابله أى لمحة من ماضيه تضئ طريق الذكريات ، الكل من خلفه متألم بما يشعر به من فقدان نفسه وهو عايش بنفس الروح ، فينظر بضعفه عليهم وكأنه تصعب عليه نفسه من نظرة الشفقة :

- دعوني بمفردي

تفهم الكل حالته وبدأ بالانسحاب من حوله ، وأقترب منه سامي يعيد له هاتفه المحمول ، فسأله بعينه مالك فأجابه :

- هاتفك

وضعه بين يده وخرج سامي تركه بمفرده ، جلس على السرير يعيد فتح هاتفه المحمول يقلب في الأرقام ، مرت عليه أسماء لم يجد ملامحهم على باله وكأنما في يده هاتف شخص أخر . لا يعرف إلا من مروا عليه من أيام المستشفي ، فوقف عند اسم نور ولا تطاوعه يده في تخطي الاسم ، يجد نفسه أتصل عليها . ففزعت نور وكأن مالك القديم عاد من نغمة رنينه ، فتجاهلت اتصاله وحاولت أن تشغل بالها في عملها لكن لا تستطيع ، ضوء الهاتف التي أغلقت رنينه يجذب بصرها كضوء عاكس من مرآة على وجهها ، فمدت إصبع يدها على تخوف من الهاتف كالتي تتحسس حرارة ملتهبة ، فبعدت يدها بقوة وقامت تخرج كالهاربة وكأنها تفر منه . أنهي مالك الاتصال

وعادت نور متخيلة أنها ستجد مثل الماضي عشرات المكالمات الفائتة ، لكنها لم تجد إلا المكالمة التي فرت منها ، شعرت بندم يحاورها جعلها تغضب من نفسها على العدم الرد عليه ، وغضب أخر من نفسها أشفقت عليه فيه كمسكين كان يناجيها ، بعد أن رأى أنها السبب في كل ما حدث له .

أحس مالك اتجاه نور بذنب لا يعلم سببه ، قرعت أمه الباب ودخلت في يدها برشام وكوب ماء وكل ما تنظر في عينيه وتجده تائه يصبها الخوف والقلق .

لازلت تشعر بغربتها عنه لكن ابتسامته لها تنقذها في كل مره من هذا الوسواس ، تتشجع وجلست بجانبه تعطيه البرشام وكوب الماء وبعد أن يعيد نصف كوب الماء . سألته :

- ما يشغلك يا بني؟

شعر مالك بمرارة البرشام فأخذ من يدها كوب شربه ليزيح مرارة الدواء ثن أخذ نفس عميق وأجابها بمداعبة :

- المشكلة لا أعلم ما يشغلني !

فتبسمت الأم فعاد الأجابة على سؤالها بجدية وكأنها أعز صديقة له :

- بفكر في نور.. لا أرى نفسي في عيونها كما أرها فيكم .. اشعر أنني جرحتها حرج كبير... لا تدرين بما فعلته في حقها ؟

وكأن ذاكرة مالك الخالية انتقلت لها ، فهي مثله لا تعلم شئ عن هذا العالم ، هي جديدة في هذه المدن معالمها ليست أثرية عندها ، فكل شئ يبنى في كل خطوة قادمة ، فهي سائحة جديدة في هذا العالم ، كتالوج الماضي خالي من الصور ، فعاد مالك مبتسم لما يحسه :

- أعتقد أنني محظوظ بإنسانة مثل نور .. تدرين يا أمي أنني أشعر بحبها في قلبي

ربت عليه قائلة :

- اسأل نور وأن كان بينكم شئ أكيد ستسامحك عليه

وقامت تاركة بحر الكلام معه الذي من الممكن أن يأخذها تيار الكلام للظلمات العمق ، وهى لا تعرف أين البر والمرسى ولا حتى أسرار الغوص في أعماق حياته ، ابتعدت عن الموج قائلة :

- ليت كل البشر تقدر على المسامحة

شعر مالك بكواليس خلف الستار من جوابها وقبل أن تغرق بهمها وتأخذه للذكريات تتمنى أن يمحي معالمها الزمان ، خرجت من الغرفة لكنها وجدت الزمن كله في انتظارها من نظرات العم التي تكاد تشعل النار في وجهها ، تبادلوا النظر في سكون والكره كالكرة المتبادلة بينهما ، اتجهت إلى سامي تسأله عن غرفتها فأشار لها على غرفتها قائلا :

- وحقيبة ملابسك مثلما أخذتها سأستجديها مغلقة بجانب السرير

تشكره وتتجه لغرفتها ، فيقوم العم وراءها يجرحها بسؤال هي من قبله نزفت منه :

- يا ترى تتمنى أن تعود الذاكرة مالك .. أم يبقى على هذا الحال حتى لا يطردك من حياته مرة أخرى؟

خرج مالك من غرفته شعر بشجار إحساسهم فنظر عليهم الاثنين سأل بعينه عن ما يجرى بينهم ، رد العم ونظراتها لم تبدل من على الأم :

- كنا نتجاذب أطراف الحديث أنا وأمك عن الذكريات

جلس مالك وكأنه لم يريد وضع نفسه في دوامة تغرقه فسأل عن دينا ، علم أنها في أخر يوم لها في الامتحانات ، استاء وكأنه يلوم نفسه :

- تمتحن وكانت طوال الوقت معي في المستشفي .. كيف كانت تذاكر ؟

فستأذن العم للخروج فسأله مالك وكأنه يأخذ منه نفسه :

- أين ستذهب؟

نظر على أمه وكأنه يواجه الحديث لها :

- لا تقلق سأعود أخر الليل .. فأنى ذاهب حتى أباشر عمل المخبز

قام سامي عرض عليه أن يقله فرفض وطلب منه البقاء مع مالك لمساعدته لكن النية أخفت أكثر من نية ، علانيتها واضحة أمام ما يقصده ، بعد خروجه بقت الأم في مكانها واقفة وكأنها تائها في الصحراء ، قام مالك يقف خلفها فلا تشعر به إلا حينما يضع يده فوق كتفها فسألها :

- لم أنتِ متغيرة يا أمي ؟

ربت على كف يده التي تمتلئ حنان من فوق كتفها قائلة :

- ربما لأنني لم أنم جيدا

من صحراء جرداء يعيدها من هناك لتمتلك الدنيا كلها لما يقبل يدها من على كف يده قائلا :

- لقد أرهقك التعب معي وعليكِ أن تدخلي لترتاحي

واقف سامي من شدة تأثره من المشهد ودموع الأم تسيل بهدوء من عينها كقطرات الندى ، مما أندهش مالك عن سر دمعها كلما منها أقترب وهى لا تعرف جواب تدافع به عن نفسها وكأنها لا تريد أن تكذب ، فقام سامي عنها قائلا :

- لا تتخيل إنها كانت ممكن أن تفقدك

ضمها مالك وكأنها تحلم فغصبها البكاء أكثر ما بعد ما مسحته من على وجنتيها ت وضمته بشدة قائلة :

- أنا لا أتصور شئ ممكن أن يأخذك منى

ضمها مالك أكثر وكأنه شعر بعطش هذا الحضن قائلا :

- لا يوجد شئ يبعدني عنك

يتوسطهم سامي وكأنه يخشى مما تخشى منه الأم في يوم من الأيام قائلة :

- ليتك تبقي مستمر متذكر أنني لأجلك على استعداد أضحى بعمري كله

قَبل مالك رأسها وكأنه يشكرها وطلب منها ويده على كتفها :

- ممكن لأجلي تدخلي لتخلدي للنوم حتى نستطيع أن نسهر الليل سويا

إطاعته لغلو القسم الذي اقسمه بحياته ، ودخلت غرفتها لتنام حتى غرقت في النوم طوال النهار . تنهض فجأة من النوم بعد أن أدركت الوقت التي استغرقته في الغياب عن الحياة ، نفضت الغطاء وقامت مسرعه متلهفة على ميعاد دواء مالك .

وجدت الجميع مجتمع في الصالة حتى معهم نور التي جاءت مع العم ، يشاهدوا مع مالك الحلقات السابقة للبرنامج ستار الشرق ، بدأت تبطأ في قدميها كأنها أدخلت في مكان خاطئ تريد الانسحاب منه ، فوجدت مالك بعينه يناديها ويفسح بجانبه مكان لها . لمح مالك تغير وجه العم وأنه ليست صدفة حينما تبدل وجهه كلما يرى أمه ، قبل أن تجلس سألته بهمس :

- تناولت الدواء

بالهمس عينه وكأنما يغازلها أجابها :

- أخذته ولم أستطيع أن أيقظك

رأى مالك في عيون نور ابتسامة شعر بها حينما تراه مع أمه وخاصة عندما ينادى على أمه أو يجلس في أحضانها ، طرق على باله أسئلة كثيرة لكنه ترك الصرح فيها حينما يحين الوقت، ونظر على نور ، حاول أن يخطف لنفسه ابتسامة فأخذها بنفس غير راضية . قام سامي وأختفي لثواني ثم عاد في يده سيناريو الفيلم يرميه على قدم مالك يفزعه :

- من المفترض أن يبدأ تصوير الفيلم بعد انتهاء البرنامج .. حاول مذاكرته إلى أن يحين ميعاده

فتح مالك السيناريو قلب في صفحاته وسأله :

– متى سينتهي البرنامج ؟

أجابه :

– أتمني بعد شهر .. لأن سيكون معنى ذلك إنك وصلت للمرحلة النهائية .. لكن ؟

تدخلت الأم بلهفتها :

– أن شاء سيحصل على لقب ستار الشرق ويفوز هو بالبرنامج

خطفت دينا السيناريو على قدم مالك قائلة باعتراض :

– على مالك الآن أن يتفرغ للبرنامج ولا ينهك نفسه في أكثر من عمل

وقامت الأم تأيد رأى دينا وطلبت من مالك الراحة . فأجابها مالك :

– لا يا أمي أنا محتاج أرجع للعمل مرة أخرى

اتجه مالك بعينيه على نور منتظر رأيها فواجدها سالبيه فى مكان صمتها جالسة ، وكأن الأمر لم يخصها قائلة :

– أنت أعلم بحالك من أي أحد أخر !

تقبل رأيها على مضض وأعطاها السيناريو فاندهشت فقال لها :

– على الأقل أحب أسمع رأيك في السيناريو

نظرت على سيناريو الفيلم وهو لازال في يده تردد في أخذه :

– هذا شئ يخصك .. واعتادت عدم التدخل في عملك

انهالت عليها أعين الجميع بلوم ، فقامت هاربة قائلة :

– لقد تأخرت ومضطرة أن أرحل الآن

واقف مالك أمامها وكأنه بعتابها بكل ما يستطيع أن يلمح عنه :

– أظن أنه لو يوجد وقت احتاجك فيه أكثر من هذا الوقت الذي أمر به

أغمضت عينيها كي لا يغيب عنها مالك الذي علمها القسوة :

– الوقت تأخر وأنا أحتاج أن أرحل الآن

يبعد نفسه من أمامها فوقفت الأم نادت عليها فرد مالك عنها وعينيه في تجاه نور:

– اتركيها يا أمي على راحتها .. لكن ممكن تجعلي سامي أن يقوم بتوصيلك للمنزل ؟

رفض العم انتظار جوابها وأمر سامي الذهاب معها ، خرجت مع سامي ووقف مالك في الشرفة بمفرده ، نظر للشارع الطويل والسماء والنجوم ، وجدا الذي يصل الأرض بالسماء الليل ، وكأنما حتى الليل سار دربه حتى لو جاء عليه النهار ، كل الذي مر من عمره عنده فقط ضائع وعند غيره ماضي محفور له أنياب تهبش في حاضره ، . خرج أمامه نور وسامي في مقابلة دخول لينا مدخل العمارة ، قرب عينيه في وقوف لينا أمام نور وكأنه يرى شئ أخذه للعمق ، بحث فيه عن طيف أقترب من ذهنه لكن لم يستطع لمسه ، تمنى أن تكون أذنيه مثل عينيه يسمع كما يرى ، وكأنما يشاهد فيلم صامت يحاول سماع ما تقوله لينا الآن :

– يا ترى مالك تذكرك أم لأزل عنكِ غائب ؟

أجابتها نور وكأنها سلمت قضيتها :

– أتمنى أن تعود ذاكراته قريباً .. حتى اخلص من تعذيب الضمير

فنظرت نور فوقها تجده واقف تبتسم بسخافة وقالت للينا :

– كله ملكك الآن .. لأنه لا يستحقني

تركتها نور فتوجهت لينا إلي مالك ويبقى بينهم سامي تائه للحظة ، يوجه لينا للصعود وبلمحة عتاب ودعت بها نور مالك بعد أن رأها في الشرفة واقف . وعلى اثر فراقها جلس مالك مع لينا . سألها:

– لم أنتِ الوحيدة من الوسط الفني تعتادي زيارتي ؟

واجد في سؤاله شئ من الوقاحة فيعود معتذراً :

– تعلمين أنني أحاول أن أستعيد ذاكرتي

عبرت لينا بعينيها على وجه الجميع وكأنما تريد أن تقول كل شئ فمنعها الجمع قائلة :

– أنا وأنت أصدقاء لدرجة أن ظهورنا سويا تسبب في إشاعات كثيرة

رفض الصدق بداخله أن يسكن مواطن الراحة ، تجمل في ابتسامة أنه يعتذر على سوء ظنه مع أن عيونه أرادت اختراق صدرها ويخرج منها ما يستطيع أن يجعله واقف في منطقة يرى فيها عمره الذي مر؟

نور تصله بالعذاب حتى وهى عنه بعيده ، جعله صمتها يتفقد أثر ماضيه ، يرى أن حزنها ليس من مجرد أشاعه .

أيضا علاقة أمه وعمه تحيره أكثر . ليلة طويلة من التفكير يخرج منها بشئ أخر لا يفهمه . تعطشه لأمه الزائد وكأنها حبيبته لا يشبع من رؤيتها .

أول ما يفعله في كل صباح هو أن يدخل غرفتها يقظ أمه من نومها وحينما تفتح عينيها يرى الذهول من عينيها ، فلا يجد مبررا يخفي هذا الذهول الذي لا يسأل له عن سبب ، وكأنما يرى عين أمامه تستمع من أحلام كانت مستحيلة أكثر من مباحة .

لا يجد كلام فقام لتركها تنام فنهضت خلفه وبحثت عن شئ تشاركه فيه ، عرضت عليه تحضير الإفطار سويا .وكأنها ذهب للرحلة قضى معها الوقت في المطبخ وكأنها أجمل رحلة في حياته.

بدأت الحياة تسير على مهل وكأن بها تربص ، الكل لا يرضى بالواقع الجديد ، لأنهم ارتدوا فيه أقنعه على وجوههم ، لا أحد فيه يعلن عن ما بداخله وكأنها أدوار يريدون أن ينتهوا من تمثيلها ، سار مالك يلف على كل الوجوه وكأنه يبحث عن مرآه يرى فيه نفسه ، التي باتت لا يعرفها وكأنما مل أن يسعى وراء ذكرياته التي هجرت أرضه وأصبحت صحراء .

وكل يوم الصبر ينفذ من على صدر العم ، كلما يرى تودده لأمه يزاد لحظه بلحظه ، ولا يعرف له مالك سبب ، وقف في ليله بينهم مالك يسألهم عن السر الذي يجمع الكره بين نفوسهم ، بعد أن رفض العم خروج أمه معه إلى شقتهم القديمة ليزورها ، ربما تساعده على أعاده ذاكرته ، أنتظر مالك سبب لرفضه وكأنما أوجده العم المنبر الذي يتكلم من فوقها ، تدخلت حينها دينا وكأنها تفض اشتباك :

- لم يقصد أبي شئ .. أنه يريد أن ..

تعصب مالك قائلا :

- كفي خداعي أكثر من ذلك .. يوجد شئ كبير أنا لا أعلمه .. أو بمعنى أخر لا أتذكره

يلتف الكل حوله وهو غاضب يتكلم :

- احتاج أعلم كل شئ الآن

تبادل الكل النظر بعد أن حضر سامي من غرفته على سماع الصوت ، لكن الأم تنظر على العم وكأنها تلعنه ، أنتظر مالك الأجابة والكل أمامه صامت فتتجرأ أمه تبدأ بالكلام :

- لأنني كنت ..

شعر مالك من صوتها المرتجف بسوء عاقبه من إجابة تكاد تمزقه ، بعد ما أدرك من صمتهم النجاة له من الكلام منع أمه من الحديث قائلا بحزن :

- ربما الأفضل لي أن لا أعلم

تركهم لغرفته فاقترب الأم من العم وكأنها تحمل الانتقام :

- لو أنني كنت أخطأت بالماضي .. فأنني دفعت ثمن هذه الغلطة ضياع عمري بين السنوات أبحث فيها عن عمري .. لكنك عشت أنت مثلهم ظالم .. تعلم أن أم تبحث عن أبنها وتحرمها منه .. ولا تتحدث عن ماضيا فالكل خطاء .. ويعلم الله وحده مدى ندمي وتوبتي عن كل ذنوبي .. ولا أدرى إن كنت سأسامحك أم لا .. لان ذنبك كان أكبر من ذنبه وأنت تذبح كل يوم أم بسكين الحنين والاشتياق .. أتقى الله حتى أستطيع أسماحك فيما بقي من عمري

وقف بين أولاده وهو يشعر من أعينهم أنه حقا ظالم ، وجدا الكل عنه يفترق ، ذهبت الأم إلى غرفة مالك استأذنته بالحديث معه ، جلست بجانبه على السرير لتزيح الجبل من على صدرها :

- لقد أخطأت في حقك منذ سنوات ..

وضع مالك يده على فمها منعها من الكلام :

- أعلم أن الأجابة سوف تكون ملومة .. ولقد منحنى الله نعمة النسيان .. عندما أتذكر وقتها تحدثي وقول لي أعذارك .. لكن حالياً يكفيني إنك بجانبي

وكأنما ارتضت لحكمه ، ضمته وأغمض عينيه في حضنها وكأنه أغلقها من شئ مخيف ، دخلت دينا تحمل الاعتذار بدلا من ولدها ، فقام لها مالك فرد على خجلها :

- مهما بلغت ذروة المشاكل فلن يفسد شئ العلاقة بيننا

ضمها في حضنه قائلا :

- برغم أنني لا أتذكر شئ إلا أنني أشعر إنكِ شقيقتي الصغرى

وعادة بابتسامه نزع منها التشاحن الذي كان يملأ الصدور وعاد إلى العم في الغرفة بعد ثواني مرت بينهما من الصمت قائلا مالك :

– أرجوك يا عمى ما بينك وبين أمي أبعده الآن عن الدنيا التي أعشها كالغريب

نظر إليه كنظرة الأب :

– عندما تعود لك الذاكرة ستأتي لتلومني .. لكن أتمنى وقتها أن تتذكر

أكثر ما تخيله مالك في باله لم يبلغ تصور الحقيقة ، تمني الآن أن يبقى على حاله ، حتى أنه هو بدأ يتمرد على الدواء ليكمل عمره على هذا الحال . شعر أنه حتى في غربته عن ماضيه مطارد من الحاضر ، ما بقى منه في الظل أراد أن لا يخرجه النور وكأن السير في الظلام أهون عليه ، سار بداخله يسأل مرآة مدنه عن حاله وكأنما ناد على زمانه .

– يا مدينة الذكريات أين أنا من مدنك ؟ أين شوارعك ؟ أين دروبك ؟ أين مدائن الأحلام ؟ أين سنوات العمر ؟ من أي ماضي بنيا حالي ؟ من أين أنا أتي حتى أعلم إلى أين أسير ! أمسى يعد يهب لغدِ العمر الخوف .. وأنا لا أعلم ماذا كنتُ منه ؟ حتى أرى ما يكون ! أاعتذر ! أم أبحث عن ثأري ! من أنا من مدن الذكريات ؟ حتى أعلم من أنا .. يحيرني ما أنا عليه الآن .. أثور أم حرق غضبي بين دمعي وصمتي .. مسافر أنا مع نفسي .. وأنا لا أعلم من أنا ! أين أنا من هذا العالم ؟ فأنا غائب الحاضر مجهول الحاضر .. أين أنا ؟ لا أعرف من أنا ؟

* * *

استأنف مالك حياته الفنية بقوة ونشاط عالي يفوق قدرته في عيون ما حوله ، هلك نفسه ليُغيب عقله وكأنما أراد أن لا يترك لحظة تجره للتفكير وكأنه لا يعد يريد الآن العودة لماضيه ، لكن هناك صورة نور شبح يطارده في الخيال وكأنها حب جديد عليه ، يدركها بين بروفات الأغاني وفي كل استراحة يأخذها يفتش عنها بين خياله ، وحلوة الشوق ظل قلبه ، يبحث عنه في دنيا ، شمسها من فوقه غائبة .

في أخر لقاء بينهم ، كان بعد ما انتهى بتحديد ميعاد زفاف دينا ، كانت للفرحة رغبة ، حاول أن يسرقها لنفسه وجالساً معها بمفردهم فسألها حينها :

- لازلتِ تحبيني ؟

ضلت طريق الأجابة بسؤال :

- متى ستسافر للبرنامج ؟

نظر حوله في كل مكان واعادة النظر إليها قائلا :

- أنا معترف أنني قمت بجرحك .. لكن ما هو الجرح لا أدركه ؟! وسألت الكل عن ما بيننا الذين أكدوا لي أننا كنا متفقين على الزواج بعد انتهاء تصوير الفيلم .. ما الذي حدث ؟ من حقي أعلم ماذا فعلت بكِ ؟ سئمت من وجودك هذا جانبي .. كالممرضة التي تدويني إلى أن تعود لي الذاكرة !

أغمضت عينيها كالتي تحلم قائلة :

- لا أحد يعلم السبب غيري .. كنت أنا التي أتمنى فقدان الذاكرة... ما فعلته ذنب مستحيل أن يغتفر

فسألها كالمسجون خلف القضبان وكأنما يترجها :

- ولا يوجد أي شئ يشفع لي عندك ؟

هزت رأسها وكأنها تعبت من طوال البحث :

- حاولت ولم أجد

وقف ينهي أسألته :

- وعندما حاولت ولم تستطيعين .. لماذا إلى الآن لم تخلعي خاتم الخطوبة ؟

أشارت له بالرحيل الآن ، فخلع من إصبعه خاتم خطوبته ووضعه أمامها قائلا وكأنه رفع عنها الحرج :

- الانسان قبل أن يحكم عليه لأبد أن يعرف ذنبه .. وأنا الآن أحاسب علي شئ لا اعلمه .. خاتم خطبتنا أمامك حتى أخلصك من أي ارتباط يوجع ضميرك .. لكنك لازلت تحمل لي إجابة .. ومهما كان قرارك .. فلابد أن أعرف السبب .. أنتِ الإنسانة الوحيدة التي من ماضيا أريد أعرف سبب جرحها .. وأنا منتظر

عاد مالك من توهانه على صوت سامي يعرض عليه لائحة حفلات الصيف ، فترك مالك له الاختيار وقام يعود لعمل بروفات الأغاني وبعد الانتهاء فوجئ برسالة نصية على هاتفه المحمول من نور طلبت مقابلته ، فشرد بنفسه بعيد يعيد الاتصال بها فسألها :

- متى تريدين أن أقابلك ؟

ردت عليه وشفتيها تتحرك ببطء وكأنها لا ترضى بما تنويه :

- الآن

طرقت ملامح وجهه بخوف سألها عن المكان ولحق بميعاده مع الغروب ، جالساً منتظرها في المطعم ، يلتفت حوله يبحث عن دخولها ، نظر في ساعة يده وندا على النادل أعاد عليه نفس السؤال عند وصوله المطعم :

- ليس يوجد للمطعم فرع أخر في هذه المنطقة ؟

أجابه النادل بنفس الابتسامة والأجابة ، أطمئن مالك ويستريح من صدقه عند رؤيته نور تقترب منه ، قام يستقبلها وبجانبه النادل ينهي أجابته التي تركها مالك ، بمصافحة نور التي كادت تخشى النظر إليه ، جلست وهى تنظر على الطاولة ، طلب مالك لها عصير ومر ثواني والكلام بداخلهم يتحاور مع النفس باحثاً عن الشجاعة ليخرج وحول مالك المعجبين تلوح له قائلاً لها :

- أنا لم أكن أتخيل أنني بهذه الشهرة الواسعة !

دخل النادل يضع العصير وهى في حالة صمت تخرج حديثها بعد مغادرة النادل :

- أنا هنا للإجابة عن سؤالك ..

ينتبه جيدا وهو يخشى المعرفة ، يوارب فتح عينيه وكأنما حاول تخيل الأحداث ، فوضعت أمامه بجانب فنجان الشاي خاتم الخطوبة وخلعت خاتمها تضعها بجانبها قائلة :

- لأنك تزوجت من المطربة لينا بعقد زواج عرفي .. ولو كنت تعلم ماذا فعلته لأجلك .. لكنت الآن تحتقر نفسك .. أما السبب لم أنا الآن لازلت بجانبك ؟ لأنني أشعر بالسبب في حادثتك .. قبل الحادث بلحظات تتحدث معي عبر الهاتف .. وكانت أخر كلمة سمعتها منى كل شئ بنا انتهى .. والآن أعيد عليك نفس الكلام .. كل ما بنا انتهى يا مالك .. وسوف أحاول أسامحك

وقامت بدمعها تركته وهو كالذي يتصور الأحداث ، بقى في مكانه يتخيل ما سمعه ويشعر باصطدام سيارته أغمض عينيه يرى ضوء سيارة يهاجم بصره ، فوجدا أضواء تضئ وتطفي في عينيه ، قام بفتح عينيه وجدا بعض المعجبين يصوره ويطمئنوا بالسؤال على صحته ، ويزاد العدد عليه ، فقام بدفع الحساب وهرب منهم في صحبة أمن المطعم ، انفرد بنفسه مع نفسه داخل سيارته ، فوقف على جانب الطريق في شبه حالة ذهول وكأن الدنيا تلف به من حوله ، رن هاتفه ورقم الأم ظهر أمامه دعك في عينيه وأغلق الهاتف يسأل نفسه :

- ماذا الذي جرى بي !

وكاد يصطدم برأسه في نافذة السيارة من ميله ناحية الشمال بقوة . أسرع لشقته دخل متخفي في حركة قدميه ، يراقب الحركة من حوله كاللص ، شعر بالخوف فشعرت بوجوده أمه ، خرجت تظهر أمامه وكأنها شبح فزعه فسألته :

- لقد أقلقتني عليك

رأت الذهول في وجهه فسألته :

- ماذا فعلت مع نور ؟

تركها مالك بلا اجابة دخل غرفته جلس على السرير وهى من خلفه لا تتركه :

- ما بك ؟

استمر يحدق في وجهها لثواني كالأعمى الذي جلس أمام البحر ، ثم فاق وكأنه يعود لبصره ، خرج من جيبه خاتم الزواج ، وقام برميهم أمامها على السرير وكأنما أجاب عليها ، فتفهمت سبب تغير وجهه ، أخذت الخاتمين وسألته :

- وعلمت منها السبب ؟

أجابها وهو يحدق النظر فيها بشدة :

- لأنني تزوجت من لينا

فزعت وهدأت في الحال فتضمه إلي صدرها . ربت على رأسه ، أخذ مالك نفس عميق وفرد يده حولها يضمها بشويش وللحظة باللحظة كالجليد يذوب ، رمى رأسه فوف كتفها يشكوا :

- أشعر بضيق شديد

تساعده كالأطفال على النوم ، تضعه في سريره ، تشد عليه الغطاء وتقبله من جبهته ثم أطفأت النور وخرجت . مرت ساعة وهو على نفس حاله يطارد النوم . فنهض من الغرفة للغرفة الأم ، وجدها جالسة تدعوا له بصوت هادى فقامت حينما رأته وسألته :

- أنت لم تنم ؟

سألها متعجباً :

- بما كنتِ تدعو لي ؟

ردت عليه مبتسمة بالخجل :

– كنت أدعو لك الله أن يتم شفاءك .. حتى تستطيع تعيد ترتيب حساباتك

ابتسم مالك ودموعه بداخله على حنانها ، طلب منها النوم بجانبه هذه الليلة ، أخذته من يده وكأنها هي التي تتمنى هذه اللحظة ، أخذت رأسه تحت ذراعيها وعيونه لا تستطيع تقاوم منوم النوم من الأمان والحنان الذي امتلكه وكأنه طفل صغير ، وهى مستمرة النظر في عينيه المغلقة تتندم على عمر عاشته عنه بعيد ، مشطت بيدها شعره وكأنها تسقى يدها من وجوده . أستيقظ مالك وجدا الأم بجانبه نائمة باتكاء على ظهر السرير ، فتأمل في وجهها لثواني فشعرت به ، فتستيقظ من غلفتها علي سؤاله لها :

– لم نمى هكذا ؟

بحثت عن أي شئ تضلل به عن أجابتها ، لكنها وجدت نفسها أمام عين مصممة أن تعرف لماذا فردت على استحياء :

– أول مرة تنم بجانبي .. ولم تطوع نفسي النوم .. إلى أن غلبني النوم ورأيتني على هذا الحال

قبل مالك يدها وهو لا يعد يبحث عن استفسار قائلا :

– ماذا لو انتقلت لغرفتك .. أن لم يضايقك نومي بجانب؟

فسألـــته كي تصدق :

– لا تجعلني احلم بأكثر ما أتخيله

أجابها بعد أن قام من على السرير :

– لا اعرف من الذي يحلم يا أمي

رأي مالك البهجة في هذا الصباح ، أراد لو يملك أن يفرد ذراعيه ويحضن الدنيا كلها وكأنه يعيش حالة حب مقيد الزمن من دخولها .

طوال جلوسه على مائدة الإفطار ينظر إلى أمه وكأنما يغازلها بعيد عن عين عمه ، يبقى مبتسماً ويضحك مما أندهش الجميع حوله ، لكن الكل سعد له ، فسخر العم بعد أن قام من الانتهاء من الإفطار قائلا :

– لم أكن أعلم أن فقدان الذاكرة أثر على عقلك !

فتركهم واستمر مالك يبتسم في نفسه ، أنهي الكل من بعده الكل وجبة الإفطار ، قام مالك خلف الأم ومعه دينا إلى المطبخ يساعدهم في حمل الأطباق فوسوس لأمه في المطبخ قائلا :

– ما رأيك تأتي معي الأستوديو تحضري تسجيل الأغنية الجديدة

أدركت وجود العم في المنزل فسألته بهمس :

– وعمك ؟

أجابتها دينا بهمس وكأنهم كالذين يدبروا مؤامرة :

– أبي سيخرج بعد نصف الساعة .. وسوف يبيت هذه الليلة في شقتنا القديمة

أقترب من بينهن وهو لازال على نفس الهمس :

– سمعتي ما قاله إبليس؟

ضربته دينا في قدميه وطلبت من الأم بالهمس عينه :

– ممكن تأتى معي هذه الليلة لنشترى بعض الملابس

استند بميل مالك على دينا رفع إصبع يده اليسري كالتلميذ يستأذن أن يكون معهم ، فنظروا إلى بعضهن يفكروا ، تحايل بقبلة تتوزع على وجه كل واحدة منهن أن توافق .

قضت الأم مع مالك طوال النهار في التصوير وهى لا تشعر بالوقت ، وهو في كامل حيويته الفنية ، جلست معه في وقت الراحة تناولت معه السندوتشات وتأكله بيدها .

يقضون الليل يتسوقون داخل " مول " ومعهم سامي الذي يشاركهم صحبتهم ، في كل خطوة مع مالك تتكعبل قدميهم في معجبين مالك ، وأمه واقفة تتباهى به . تمل دينا من شهرته التي عرقلت حركتهم ، أشترت قبعة شبابية ووضعتها فوق رأسه ظننا منها أن تنكره عن عيون الناس . لكنها أكتشف أنها لا تستطيع أن تخفيه من ازدحام المعجبين من حوله .

تتفاجأ الأم بأن معظم التسوق لأجلها ، بالغ مالك في شراء كل شئ أتت عينيه عليه ، حتى تعصب عليه سامي من كثرة الحقائب التي حملها في يده.

أنهوا السهرة بوجبة العشاء على ظهر مركب في النيل ، فلمحت دينا يد مالك الخالية من خاتم خطوبته ، مسكت بمعصمه للتأكد من إصبعه تسأله بعينها . فرد عليها في خضوع :

- كان من حقها أن تبعد .. لأنني لم استحق إنسانة مثلها

غضبت دينا من تصرف نور :

- كيف تتركك وأنت في هذه الحالة ؟

ردت الأم وكأنها تدافع عن نور :

- يكفي إنها صبرت كل هذا .. بعد ما كانت تعلم أن مالك متزوج من المطربة لينا

تدخل سامي مندهش :

- أنت علمت ! ونور من أين علمت هذا السر؟

تثور دينا حالة الغضب على مالك :

- لماذا فعلت هذا بها ! لو تعلم ما فعلته معك نور ؟ كل الذي أنت به سببها هي .. الوحيدة التي وقفت بجانبك وساندت موهبتك إلى أن أصبحت فنان مشهور .. لم يكن هذا جزأها منك أبدا ؟

درأت مالك عينيه بين النجوم ، يسبح بخيال خجلان من خيانة أحلام ، وشعور من الذنب لا يتحمل جرأته عليه ، سماء الحب سئمت من قصور تبنى وتسكن لنُاس أخرى . جوابه على دينا يرفضه الواقع أن يخرج له مبرراً فقامت عنه أمه بالجواب :

- لا تحاسبي إنسان لا يتذكر شئ عن ماضيه

ردت بتأثر وكأنها تتأسف على حاله :

- لكن هو الذي فعل هذا .. أتمنى أنني أجد مبررا منه في يوم من الأيام .. حتى لا العن في يوم الحب

مالك بعصبية :

- أكيد ما فعلته كان لسبب (فهدأ) وأظن أنه سبب كبير

واتجه إلى سامي فسأله :

- لماذا لم ترد ؟

تنهد سامي قليل فاخرج ما يخفيه تحت ضلوعه :

- أنا السبب

رفع مالك عينيه في وجهه ، فيقابله سامي قائلا :

- أنا أسف يا مالك .. زواجك من لينا تم باتفاق بيني وبينها مقابل مبلغ .. وأنا الذي أرسلتها لك شرم الشيخ .. وهناك تم بينكم الزواج

وكأن دينا لا تصدق ما سمعته :

- أنت !

دافع عن نفسه وعينيه كلها أمل أن يرى مالك فيها العذر:

- ما فعلته كان لأجلك أنت وحينما تعود لك الذاكرة سوف تعذرني

رد عليه بقسوة :

- أعذرك على إنك أخذت مال أم على خداعي !

تركهم سامي وكسرة عيناه تلمس تراب الأرض . وجدا مالك أنه حتى في غربته عن ماضيه مطارد من الحاضر ، ما بقى منه في الظل أخرجه النور ، وكأنما هرب فسافر دبي ليقف في آخر حلقات برنامج ستار الشرق . ومعه برفقته في هذه الرحلة أستاذ خالد الذي رفضاً سفره بمفرده وكأنه طفل صغير خشي عليه . بعد عودة مالك الأخيرة للبرنامج لم يبقى له سوي الفوز أو الخروج من البرنامج ، وقبل أن خروج قدميه إلى نور المسرح أستوقفه أستاذ خالد :

- ربما لأول مرة أقول لك هذا الحديث .. أنت فنان ذو صوت عذب لن يتكرر كثير هذا الزمان .. أريد منك هذا اليوم تغنى فقط للجمهور الذي عشقك واستمر في تصويته لك .. لا يهمنى الفوز بمسابقة البرنامج كما كنت أرسم لك .. الآن أصبحت نجم مشهور .. ولم حقا يعد يفرق وجودك في هذا البرنامج .. مشوارك في الشركة معي أهم وينتظره المفاجآت .. أعترف أنني لم أدرك موهبتك إلا حينما رأيت نجاحك بين الناس

وقف أمامه صامتاً رأى صدقه بين خوفه وحبه ، فدخل مالك على المسرح بعد ما اختاراً له الجمهور أغنيته ، وهو يغنى وكأنما يغنى بين نفسه وروحه ، غنى بين تصفيق الحاضرين وتصويت الجمهور الذي شاهده . راجعته هذه الأغنية بقوة مرة أخرى وبقى له في هذه الليلة أغنية أخيرة من اختياره يقوم بغنائها . كي يختار الجمهور من كل حكم متسابق واحداً يصل لنهايات حتى يفوز واحداً منه بلقب .

عاد بعد قليل ظهوره على المسرح بعد ما اختاراً لنفسه أغنية وربما تكون صدفة أن يختار الأغنية التي تحبها نور وطالبت منه في مرة أن يقوم بغنائها ، أو ربما إحساسه الذي تربى وعاش عليها أراد أن يسمعها منه .

حتى نور ترى الاندهاش والدموع بين عينيها تسيل وهو يقوم بالغناء ، وكأنه بين الطيور يغرد أو في سماء الطرب يطير بين النجوم . وهى معه على حافة جناح الذكريات رفرفت بين دروب الماضي التي جمعت عشقهم .

وبقى لحظة إعلان النتيجة ، لأول مرة واقف مالك والخوف واضح عليه وحينما أعلن الحكم الخامس أسم مالك المتصدر وكأنما عادت له روحه ليتأهل ومعه متسابق أخر لأخر حلقات البرنامج .

وهو الخروج من باب النجوم للفوز بلقب ستار الشرق .

بقت هذه الأيام يعرض فيها البرنامج الأغنية الخاصة بـــ مالك والمتسابق الآخر تمتلئ القنوات الفضائية حتى تشتعل بينهم المنافسة .

وبين الحين والغفلة سحب مالك نفسه بعيد في ليله قضها بمفرده داخل لبنان ليضع نهاية لأحداث حياته . فاجأ لينا بمكالمة هاتفية أخبرها بوجوده وانتظارها داخل مطعم وسط لبنان. أسرعت إليه لينا تعاتبه علي هذه المفاجأة فوجدته صامتاً منتظر سكوتها فسألته :

- ما سبب وجودك هنا ؟

سخر منها قائلا :

- أنا لا أحتاج لسبب حتى أأتى لزيارة زوجتي !

ابتسمت وبنفس روح السخرية أجابت :

- عظيم أنهم ذكروك أنني زوجتك .. لكن من الذي قال لك هذا الخبر؟

نظرت على خاتم خطوبته فعرفت من عدم وجودها في إصبعه جواب سؤالها فأجابت :

- مستحيل كانت تكون في يوم لك

رد بهدوء :

– ربما !... لأنها لا تستطيع دفع المال حتى تشترى قربى منها

وضعت يدها على رأسها فكرت لثواني وكأنما تتعمق للبحث عن أجابة ثم عادت قائلة :

– أتمنى أن نؤجل هذا الحديث إلى تعود لك الذاكرة .. لأنه تائه عنك أشياء كثيرة

أخذ مثلها نفس الثواني وعينهم في مواجهة بعض قائلا :

– كان أول لقاء بيننا هنا في نفس هذا الفندق .. وكان أول اعتراف بمشاعرك لي ونحن نتمشى على البحر .. وقتها همستي في أذني وقولت لي " وأنت بجانبي تغير لي شكل الدنيا "

سألته مندهشة :

– لا أحد يعلم غيرك هذا !

فسألها في الحال :

– وتظني من الذي يتحدث معكِ الآن ؟

ضحكت مندهشة على سذاجتها :

– لقد عادت لك الذاكرة ؟

بملامح تعجب على وجهه أجاب :

– بما ترى !

شعرت بصدمة ودهشة قائلة :

– ماذا تريد ؟

رد مالك :

– أنهى علاقتنا

سألته بكسرة :

- بكل هذه البساطة استطعت أن تأخذ قرارك ؟

أصبح لا يصدق حزنها أكثر من حزنه وكأنما نار أهون من نار :

- أنتِ أيضا بكل سهولة كسرتي قلب إنسانة .. عاشت عمرها كله لا تنتظر من الحب إلا الحب .. لكن لأجل إنسانة أنانية الحب مرة .. فأرات الحب كله حرب... لا يهمها من الذي يخسر .. لكن لا تكن هي المهزومة وبأي نتيجة .. أنا لكِ كنت بمثابة تقيم ذاتي تقيمي به نفسك... عوضتني بحبيبك السابق .. بإنسان تتمناه كل الفتيات .. وأيضا تستغلي هذه العلاقة في تصدر الجرائد والمجلات

لا تستطع النظر في عينيه ، فخرج من جيبه " شيك " رماه أمامها على الطاولة وأكمل :

- هذا ثمن زواجك مني .. أعتقد إنك بهذا لم تخسري شئ .. بالعكس أنا الأنسان الوحيد الذي خسر وأكثر شئ خسره .. هو احترامه لنفسه .. تعلمي لو ثمن عودة نور لي هو فني .. سوف أتنازل عنه .. أنتِ طالق

فقام مالك فأمسكت بمعصمه قبل أن يرحل:

- أنا أسفه يا مالك

نفض يدها عن معصمه ، بنظره استحقار يرمقها بها وكأنه يصفعها على وجهها. تركها وعاد في طائرة الظهر وكأنه أراد أن مسابقة الأحداث ليرميها في الماضي قبل أن يأتي الحاضر بها .

واقف بسيارته أمام الشركة التي تعمل بها نور يقف منتظرها لدقائق وحيرتاه تتعجل الساعة لتمر ويحين وقت انتهاء الدوام وخروجها .

لكنه لا يتحمل الوقت خرج من سيارته ، دخل لها الشركة وكل من يقابله لا يصدق أنهم رأوه ، يتحول المكان كله لضوضاء أسم " مالك " يُسمع في كل أذان الموظفين إلى أن وصل إلى نور التي قامت على أثره ، خرجت من مكتبها فأرت مالك يتصور مع المعجبين ، فأتت عينيها إلى عينيه

وغابت ثواني العيون للحنين وقبل أن يسرق نور الحنين فاقت منه ودخلت إلى مكتبها ، استأذن مالك ودخل خلفها المكتب ، يجد زميلتها التي شاهدت أيام حبهم فرمى عليها السلام . واتجه إلى نور وقف أمامها كالمتسول ، الذي ينتظر أن تحن عليه ، سألته وهى لا تنظر عليه ، شغلت عينيها المشتاقة للكتابة على الحاسب الآلي :

– ماذا تفعل هنا يا مالك ؟

جلس مالك أمامها :

– أتيت لتحدث معكِ .. أعلم إنكِ انهيتي علاقتنا .. لكن من حقي أنا أيضا انهي معكِ أيامي

نظرت إليه وكأنما الحديث بينهم منقطع :

– كل شئ بنا انتهى

نظر مالك إلى زميلتها وكأنه أستنجد بها فتدخلت قائلة بنبرة صوت هادئة :

– أعتقد أن الحديث بينكم هنا سوف يتسبب في طردك من العمل ؟

قامت نور قائلة بصوت عالي :

– الحديث بنا انتهى

وقف مالك أمامها وكأنها لا يتحمل أي نبرة صوت تهدده قائلا :

– نور من فضلك هذه أخر مرة تريني .. كل الذي أطلبه دقائق .. من فضلك

فتجد نور التائه زميلتها ناولتها حقيبة يدها وغمرتها بنظرة تلبى طلبه ، فخرجت معه نور صعدت بجانبه إلى السيارة فقبل أن يدور السيارة طلبت منه أن يتكلم الآن فنظر إليها قائلا :

– تسمح لي أوصلك ؟

قبل رفضها لم يترك لها مجال ، قاد السيارة وبدأ بالكلام وكأنه يريد محاسبة الكل قائلا :

- في يوم من الأيام احتجت لكِ ولم أجدك .. دائما كلما تسمعين عني إشاعة تهدديني بتركي... وحينما أتت مشكلة أمي لم أجد إلا إنسانة واحدة فقط هي التي بجانبي .. بعد ما لجأت لكي .. أنتي التي أدخلتي لينا حياتي .. أنا لا أعفي نفسي من الذنب .. ولكن من حقك أن تعلمي سبب زواجي ... في يوم من الأيام أتيت لكِ وأنا أحتاج أن أتكلم معكِ ولم أجدك

نظرت إليه وتمهلت في نظرها له ثم سألته :

- متى عادت لك الذاكرة ؟

أخذ منحنى قائلا :

- كما جعلتيني أنسى .. أنتِ أيضا التي ساعدتني في عودتها

طلبت النزول من السيارة لكن لا يسمع لها وأستمر في طريقه فسألته :

- وماذا تريد مني ؟

نظر إليها :

- حتى وأنا فاقد الذاكرة كنت المسك بداخلي وكأن قلبي لم ينسى حبه القديم

أتت لتتكلم فأكمل حديثة :

- أنا لم أضغط عليك في اختيار حياتك ؟

اقتربوا من الشارع من محطة قطار الأنفاق ، فطلبت منه نور أن يقف السيارة هنا ، أوقف مالك السيارة وقبل أن تفتح الباب حدثها وعينيه أمامه :

- ليتك تعتبريني مت وأحُيت من جديد .. أنا طلقت لينا .. أتمنى لو أنكى تستمري تتذكري ذكرياتنا الجميلة.. وأنكِ كنت يوم تحبيني... ربما يحن قلبك على إنسان يحتقر نفسه كلما يدرك أنه ظلم أجمل شئ في حياته

برقت الدموع وتتلألأ بين الأهداب على جرح غلب الحنين وصاح يلوم القلب ، العذر هنا ممنوع غير مباح ، عذرك الوحيد كان مشاعرك ، فابتت غارقة في دموع الألم ، مساحة الغفران امتلأ مكانها فيض الكذب والغش ، وما بقي من العشق سائل عليه دماء الغش ، لم يتبقي إلا خطوة الرحيل ، قبل خروجها من السيارة أعطها مالك خاتم خطوبتهم قائلا :

- ستجديني انتظرك العمر كله حتى لأخر نفس من عمري

أعطاها الخاتم وبعينيه يترجها أن تقبلها قائلا :

- أنا قمت بغناء الأغنية التي كنتِ تعشقين سماعها منى .. وكان لا يهمنى وقتها تصل للناس أكثر منك .. وسأظل أغني لكِ يا نور .

استسلمت وأخذت خاتم خطبتها وتركته في الحال ، بقى مالك بمكانه لا يتحرك بالسيارة ، يودع حتى فراقها وكأنه جلس على ظهر سفينة يودع مدينته التي طالما تبعد عنه . استمرت نور في السير فلتفت بعينها أرادت النظر عليه ، لكن عضلات وجهها متجمدة ، تقسي على أن تقوى ، وألتفت برأسها عنه تقوى على الهجران ، تترك حياتها للجرح يداوى الحنين .

* * *

انطلق مالك في رحلة سفر للخارج لتصوير إعلان عن شركة مياه معدنية ويجوب في عدة دول يقوم بعدة حفلات روج فيه عن ألبومه المنتظر انطلاقه ، الذي جعله أستاذ خالد الانتهاء منه ليعلن عنه بعد عقب انتهاء البرنامج .كل من حوله لازال يخفي عنهم رجوع ذاكراته ، وكأنه تقبل الوضع الجديد ، حتى سامي لم يعلم عودته لماضيه .

بعد غياب نور عنه كمن يسير في الظلمات ، عتاب في كل دقيقة حتى هاتفه المحمول ، بعد ما راح منه ما كان لأجله حامله ، لم يعد يري فيه فائدة ، يغلقه أكثر ما يفتحه .

عاد للقاهرة للمنتج مباشرة طلب من البرنامج وأستاذ خالد تغير أغنية الدعاية لألبومه ، قبل العرض المباشر للبرنامج ، أغنية لا تعبر عن الحالة الشخصية الذي عشها ، وكأنه هرب بحاله في أغنية يتمنى يكون في حقيقتها ، غنها كحالة للبهجة ورسالة حب للحياة منه إلى نور واعتذار وتسامح .

في ساعات قليلة غمرت رغبته في أغنية بثها القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية ، فوجدت نور أينما تكون وكأنها تتعقبها في كل مكان، لا تخفي ابتسامتها في راحة ألمها ، كلما سمعتها أو رأتها " كليب البرنامج " عرض فيه أهم مراحل ظهوره في البرنامج . ، طاردها مالك بفنه حتى في الشارع جعل أغنيته تتحرش بها.

لم يستقر مالك في شقته إلا بساعات نوم قليلة ، جدول أعماله شغله بأعماله ، تراه أمه من الأيام نائما أو كمثل الجمهور على شاشات الفضائيات .

لا تكلمه إلا تحية الصباح أو المساء لكن ما يطمئنها أنه مازال على عهده ولم يترك ليلة إلا وهو يعود ينام في حضن ها.

في كل يوم مر أكتسب معجبين من جميع أنحاء العالم ويفترق عن نور أكثر ، كالمودع على المرسي لكن بأمل أن يكون في يوم عودة السفينة لبره .

فأحيانا يخدع الموج الهادي الريح ويحوله إلى جنون ، يد نور التي إزالة من إصبع يدها خاتم خطوبتها ، أصبحت تعطى الحق لغيره يطرق بابها.

تفاجأت نور أن أمها تبادلها الحديث عن شاب أردا التقدم لخطبتها، أصابت بالذهول لا تسمع باقي الكلام التي تتحدث به الأم عن الشاب ، وكأنها أخر شئ تتوقعه ، كأن مالك في حياتها الأول والأخير، رأت الأم وهى مازلت تحكى أنها ليست معها ، شفقة على إحساسها وكأنها دخلت طعنتها ، سألتها وكأنما أرادت أن تريحها وترتاح :

- طالما لازلت تحبيبه.. لم تتكبري على قلبك ؟

تنفست نور الكلام قبل نطقه :

- لأن جراحه كان أكبر من حبه

واقفة تستريح بنفسها بعد سير طويل :

- كلما أتذكر ما فعله بي .. كلما رخصت نفسي في عيني

ربت عليها أمها وبخوف حدثتها :

- أنا لم تتدخل في حياتك الشخصية هذا قرارك .. لكن كل ما اطلبه أن تضعي النهاية .. الشاب الذي تقدم لخطبتك لابد أن تتقابلي معه ثم تتخذي قرارك .

فتركتها لوحدها تتحاسب مع ماضيها ومستقبلها ، فوجدت شعورها كله يلوم على مالك للوصول لهنا ، لهذا العالم التي رأت فيه الغربة ، بعد الحب عتاب ولوم .

الغربة التي يعيشها مالك جعلته يتوه أكثر في الحياة ، أستغل عمله في انشغال وقته وكأنه جعله ثملته ينسي منه الوقت الذي يمر بدونها ولياليه .

والأم التي لا ينسي يده وهى تصفعها وجحوده عليها وكأنما هروب من أمام عينها ذنب شعر به كلما رآها شعر بقسوته وظلمه .

سرقها لنفسه وكأنما أراد أن يعوضها عن كل ما مضي ، في ليلة بنور لها السعادة بعد أن فأجها بحضورها معه نهايات البرنامج .

وجدا سعادته في سعادتها ، أخذها معه وكأنما يشبك بين ذراعيه الدنيا ، جالسة بين الحضور بجانبها سامي ينتظروا مالك الذي سيغنى أغنية جديدة على المسرح . خرج مالك على المسرح قطع صوت الموسيقى واستأذن ليتحدث قبل أن يغنى :

- اليوم أتقدم بالشكر لكل الأستاذة الجالسين أمامي وأشكر جمهوري الحبيب .. الذي استمر يساندني طيلة مشواري مع البرنامج وبعد .. وسأظل مدين له لأنه سبب ما أنا فيه الآن هو أنتم .. واسمحوا لي أن أخص الشكر اليوم لأغلى إنسانة وهى أمي

أشار عليها بيده التي صفعتها

- أنا فخور فيها وسامحيني أن كنت أسأت إليكِ .

وبدأ بالغناء وعينيه كلها في احتضان لأمه وكأنها كالنوتة الذي يعزف أمامها قائد الفرقة الموسيقية لا تغيب عن ناظريه :

- أغلا واعز الناس والكلام الموصول بالحنان .. القلب الطيب الموصوف بالأمان .. قلبك أنتِ يا حبيبتي .. أحب الناس أنتِ .. مهما دار به الزمان على حاله باقي كالذهب والماس ..لا يتغير بها الحال مهما تبدلت الأزمنة .. عشقك أنتِ مثل القمر واحد في السماء .. النجوم من مشاعرها تتلألأ وترقص .. يهدأ البحر الثار من حنانها .. يتنفس الضدي من نور وجهها .. لو بدرت الأرض إحساس .. لا افترش الوجود غنى وورود .. أعلم أنني سبب فرحك وحزنك .. أنا شبابك وشيبك أنا عمرك ومأمأتك .. لو خيروكى بين الحياة في بعدى .. لا اخترتِ الموت بين ذراعي .. نفس العهد بكِ موصول تعطى الحب دون مقابل مهما كان منى فلا يقبل قلبك الغضب .. أنا مسكون بكل حواسك .. أنا لم انحنى من قبلك لامرأة أتوسلها ، وأتودد ، وأتذلل ، إلا أنتِ .. أقبلك من يداكِ لرأسك .. من أجلك تقوم دموع عيني ليالي تتمنى راضكِ عنى .. قسوت أنا حتى أن وفيت بكِ إحسان .. ولن أكمل جميلك إن عشت عمري كله تحت إقدامك أمام حبك الملئ بالنعم .. من حنانك والآمان الذي أحسه من يديكِ .. والهموم التي تغرق كلما نظرت في عينيكِ .. وكلامك وسلامك وشفتيكِ التي تلمس وجنتي كلما أعدو أو أتي .. والأيام والليالي المصانة بداعكي وصلاتك وقرائنك .. وعيني التي تنام بين ذراعيك .. والنفس التي تهدأ كل ما لمستي شعري .. روحك المليئة بالتسامح .. حبك وعشقك كله عبادة .. الله يسامحني سأظل مُدان لم أوفي لهذا العشق حقه وإن عشت عمراً على عمري .. الله يسامحني سأصبح في ذنب أن لم تغفري لي تقصيري في عشقك يا مولاتي .. الله يسامحني لم يكفي لك العمر ديتك مقابل حملك وولادتي يا أمي ".

لا تكف دموع الأم طوال ما كان يغنى وكأنها هي التي تعتذر له عن تقصيرها ، ويبقى الدموع في عينيها بعد انتهاء مالك ، استمرت تسكن حضن مالك إلى أن ناد عليه أحد أستاذ خالد ليعود يقف على المسرح .

وعاد مالك ومنافسه أخر مرة على مسرح ستار الشرق لإعلان النتيجة النهائية . الكل مترقب ومنتبه ونظرات مالك فقط مواجه لأمه التي ظلت تدعوا له ، تحدثت المذيعة كثيرة عن مشوار كل واحد منهم ، ويقوموا الحكام يقفوا بجانبهم ، كل حكم يقول رأيه في المتسابقين وعن الذي سيعلن بعد قليل من صاحب لقب "ستار الشرق " .

الذي سيغنى أخر أغنيه له على المسرح بجانب الحكام الأربعة التي تتدربوا عليها ، أستمر التصويت للدقائق ثم جمع معه تصويت باقي الأيام التي مرت من التصويت . فخرجت النتيجة التي ستعلن عن المذيعة ، مسكت الورقة بين يديها وكأنها تعصر قلوبهم معها قائلة :

- الذي نال لقب ستار الشرق .. هو فنان منذ الوهلة الأولى له هنا على المسرح .. وهو يأسرنا بإحساسه وصوته العذب .. استطاع بدون نزاع احتلال مكانة كبيرة في قلوب الجمهور في مختلف الوطن العربي .. الفائز هنا هو مالك أسامة

نزل مالك على الأرض ساجدا مع أنه كان في الأول لا يبالى للفوز أو الخسارة ، بعد أن ذهب عليه كل الجمهور ، فبتعد وذهب إلى أمه قبل يدها وحضنها بشدة .

بدأ حرس المسرح لغناء مالك مع الحكام أغنيته الأخيرة وهو حامل لقب ستار الشرق . الفرحة التي لا تغيب عن نور كمثل جمهوره بعد ما كادت وقفت نبضات قلبها عند إعلان النتيجة ، وجدت فوق رأسها دينا التي راحت شاركتها الفرحة . وعندما تحدثت عن مالك فوجدت الكبرياء يصد حديثها ومنع الكلام .

* * *

داخل هذه الأيام التي تمر بحث مالك عن الجراءة ليخبر عن عودة ذاكرته ، بعد أن عاد من مقابلة اندهش منها وهى مقابلة صاحب شركة الإنتاج الكبيرة الذي قابله مالك للعمل مقابلة صوت ورفضه بلجنته الفنية ، عرض على مالك عرض كبير ليفسخ عقده ، مقدماً له كل الإغراءات التي يبحث عن أي مطرب كبير في مجاله . لا يملك مالك سوى الضحكات الكثيرة من حال الدنيا قائلا :

– أنا وافقت على مقابلتك فقط لأرد اعتباري أمام نفسي وأرفض عرضك

فتركه مالك وحاول البحث عن نفسه بعد النجاح والشهرة ، أراد العودة بذاكرته لكن خشي المواجهة لكن لا تسير الأمور بما كان ينويه بعد أن فضل البقاء في هذا السر مؤقتاً .

علم سامي الذي سرقه الذنب من لينا التي طلبها ليصل لحل معها لإنهاء علاقتها بمالك ، فتفاجأ بكل ما حدث أن مالك سافراً لها لبنان ، وأنه أنهي العلاقة معها وأخذت حتى المال الذي أخذه منها ، وأن ذاكرته عادت .

أنهى سامي المكالمة والذهول يملا عيناه ككوب يصب ماء ، دخل عليه أبيه ولا يعرف ينكر من أمامه ذهوله وأخبره بعودة ذاكرة مالك .

فتركه على الفور دون سماع باقي الحديث ، انتهز الفرصة وخرج لأم مالك وقف أمامها حدق فيها النظر وكأنه مستعد لقول المفاجأة . أخبرها بعودة ذاكرة مالك ، فبقت مكانها بعد سمعها الخبر ، لا تعرف أن كانت سعيدة أم أنها حزينة . بين الصمت والكلام لا تعلم من أين تبدأ ، فعاد عليها الكلام بسؤال :

– بما تظنين ما يفعله بكِ مالك بعد عودته ويجدك هنا .. يجد المرأة الذي صفعها على وجهها .. المرأة التي لا يشرفها أن تكون أمه

نست كل ما مر وتبسمت بعد ما رأسية على شاطئ مشاعرها :

- الحمد لله أنه تم شفاه .. وأحمد الله أنني في يوم عانقته وأخذته بين ذراعي .. ولم أكن يوم أحلم بأكثر من هذا .. ومستحيل أطعم بشئ أخر .. سأترك له البيت وأتمنى أن يكون ضميرك مرتاح .. على فعلته بي

دخلت غرفتها توضب ملابسها وهى ترضى بكل ما لمته من هذا البيت ، من ذكريات وأيام التي لم تدخل سرقة على خيالها ، بل منحها القدر بها .خرجت من الشقة ومن خلفها سامي خرج من غرفته على صوت غلق الباب فسأل والده :

- من الذي خرج ؟

رد عليه وملامح وجهه غير مفهومة :

- لقد رحلت حينما أخبرتها أن مالك عادت له الذاكرة

نفخ سامي بغضب وضع يده فوق رأسه ويبرر غضبه بهدوء :

- أبى. لقد عادت لمالك الذاكرة منذ أسبوعين وربما أكثر

فتركه سامي في حاله اندهاش ، يحاول أن يلحق بأم مالك لكنه لا يفلح . عادت لطبيعة حياتها إلى القصر ، لتقابل هناك أسوء السخافات من مي وزميلتها ، التي انتهزت الفرصة لتسخر منها .

وعودة مالك أيضا وجدا من ينتظره وأكثر ، وجه عمه ينبئ بالقلق ، وجه دينا التي تكاد تعتذر بعينها عن ما سيلقيه ، بحث بعينيه عن أمه فقام عمه يريحه من البحث :

- عادت لمكان ما أتت به

حاول مالك فهم مغزى الكلام لكن ضله ذكائه في فهم العم فاوجد الأجابة من سؤال العم :

- لماذا أخفيت علينا عودة ذاكرتك ؟

نظر مالك على غرفة أمه وكأنه كان خشي من هذا اليوم الذي يراها خاليه من غيرها ، أجاب على العم بكل ما كان يوجعه ، وكأن سحاب غمام لم تتحمل ما تحمله وأسقطت ماءها :

- بسببك أنت .. لأنك لم تدرك إنها أمي.. منذ لحظة إن صفعتها على وجهها وأنا بداخلي شئ مكسور يكاد يقتلني في كل دقيقة تمر بي.. ربما لعنة وأصابتني وكل شئ من حولي كان يتهدد .. خنت نور وتزوجت عليها .. منذ هذا اليوم وأنا لم اعد أعرف نفسي .. وعندما حصلت لي الحادثة ونمت في حضنها .. شعرت وكأنني عدت لبيتي .. كنت أشعر بحنانها حتى لو نظرت لي .. كان من حقي اسكن حضنها بعد كل هذه السنوات .. وأنا اخفي عليك الأمر . حتى لا تأتى هذه اللحظة واقف أمامك وتخيرني .. لم يكن لي ذنب إنك تحرمني من أمي أو تحرمها مني .. وأخفيت عنها حتى شفائي .. لأنني كنت لا أستطع أن أرفع عيني في وجهها الذي يسقيني الحنان .. وأنا يدي كانت على هذا الوجه تصفعه... مهما حكيت لك لم تقدر .. من في هذا الكون يُحيى له القدر أمه ويبتعد عنها !

نزل على يده يقبلها وأكمل :

- أرجوك لا تحرمني منها ولا منك .. لا تخيرني بين الجنة والنار والهواء والماء .. فهذا ليس اختيار

دمعت عين عمه فضمه إلى حضنه وكأنما ذاب جليد الثلج قائلا :

- وأنا يا بني لم أخيرك .. الناس لم تختار ماضيها .. المهم يختاروا مستقبلهم .. أرجع أبنى مستقبلك مع أمك .. عوضها عن عمرها كله

نظر مالك في عينيه وكأنه لا يصدقه فبتسم العم قائلا :

- أنا خلقت لسعادتك أنت وأخواتك هؤلاء .. اذهب ولا تعود إلا وهى معك

وقف مالك يبتلع في ريقه ويسمح باقيا الدمع المتراكمة على وجنتيه ، مشتت يسأل عن العنوان ، جرى عليه سامي يشده وكأنه ينقذه من تصطدم سيارة :

- أنا أعلم العنوان .. هيا بنا

أسرعوا إلى الخارج ، وتفر من خلفهم دينا تلحقهم قبل أن يسيروا بالسيارة دون أن أعطاء تعليق لوجودها . دخلوا إلى حديقة القصر في تزامن عودة الطبيبة هدى ، خرجت من السيارة وهى

تبتسم على حضور مالك وكأنها تعاتبه على تأخير هذه الزيارة منذ سنوات ، وضع عينه في الأرض خجلاً ، دخلت أمامه وكأنها ترمى من خلفها الكلام قائلة :

- أمك تنتظر هذا اليوم منذ أكثر من ٢٧ عاماً

وضع سامي يده فوق كتف مالك وكأنه يدفعه من الغرق في الماضي إلى الحاضر، دخلوا إلى القصر ، وقف مالك بجانب الطبيبة هدى يشاهدوا سخافة مي وزميلتها مع أمه وهما لا يدركوا بوجودهم .

طلبت كل واحدة من المربية وضع أمامها كوب العصير ، وكل ما تحمل صينية العصير يستخفوا ويجعلها تضعها مرة أخرى ويضحكوا ، طلبت منها مي أن تأتى لها بالحذاء من جانبها ، فوجدت صيحة غضب من الأم وكأنها ريح أتت بإعصار واتجه مالك إلى الأم وهى تطأطئ على الأرض رفعها بيده وكأنه يتأسف لها قائلا :

- أنا أسف أني تركتك منذ إن علمت بوجودك

أجابت ودمعها كاد أن يتزل لرقبتها :

- يارب تسامحني أنت على ..

جعلها تكف عن الكلام قائلا :

- أمي أنا عادت لي الذاكرة منذ فترة .. أنا أبنك الذي كان ينام كل ليلة بين أحضانك .. أنا أبنك الذي حينما بحث عن الفوز غنى لكِ أنتِ .. أنا أبنك الذي الآن يطلب مسامحتك

وضعت يداه على وجهه كابن حقيقي تتحسسه ، دون إحساس بالسرقة قائلة وهى كادت تصرخ :

- آه لو تعلم كام أخذ منى هذا الزمن لانتظاري لهذا اليوم ؟

ارتمت في حضنه دون أن تشعر أنها أختلسه ، بعد ما الآن ردت الأيام حقها ، وجعلتها تمتلكه .
اتجهت الطبيبة هدى إلى مي الواقفة على حافة الخوف لا تستطيع البوح بأي كلام ، وحينما حاولت صنع الكلام صفعتها على وجهها :

– طوال الوقت كنت متخيلة إنك مدللة .. ولم أكن اعلم إنكِ بهذه الوقاحة

حاولت تتدخل بينهم الأم لكن يمنعها مالك واتجه إلى الفتيات الذين ينظرون له نظرة إعجاب مكسورة بالأسف يقول لهن :

– لا يوجد عندي كلام أوجه لكم .. لكن أنا لا يشرفني في يوم من الأيام أنكن تكونوا من جمهوري

أكملت عنه الطبيبة هدى بطردهم خارج القصر واقتربت من مالك تعتذر فأجاب عنها :

– أنا الذي أقدم الشكر لكِ أنكِ راعيتي أمي كل هذه الفترة .. وإنكِ كنتِ سبب فى عودتي لصوابي وبيتي الحقيقي

نظر إلى أمه يبتسم :

– بيت أمي مفتوح لكِ في أي وقت

ردت عليها بابتسامة :

– لقد تعجبت في البداية من إنك صاحب إحساس وصوت رفيع من الذوق العالي .. وكنت بهذا الجفاء .. لكن الآن لم أتعجب .. وأنت طوال عمرك أبنى الذي كنت أبحث عنه مع أمك .. وأحمد الله أنك عدت

فاتجهت الأم بكل حنان إلى مي التي لازلت واقفة تبكى قائلة :

– أنتِ أيضا ابنتي التي ربيتها منذ إن كانت طفلة

تزاد مي من بكاءها وهى تعتذر لها فضمتها الأم إلى صدرها :

– أنتِ في مكانة أبنى مالك

اتجهت مي إلى مالك تعتذر له ، فنظر مالك إلى أمه وكأنه يستأذنها ، فوجدت مي ابتسامة مالك تضئ وجهه وطلب من أمه أن تأتى بحقيبته ملابسها ، فتطوعت مي أن تحضرها لها وأسرعت إلى الغرفة ، لكن الأم أرادة النداء على مي التي اختفت من أمامها في لحظة ، اتجهت إلى مالك قائلة :

- أنا لا أتمنى أنك تقف أمام عمك الذي رباك

ترك مالك الجواب يتبادله سامي ودينا سويا :

- أبى يعلم بوجودنا هنا .. وأعتبري وجودنا هنا بديل عنه
- وهو الذي طلب من مالك أن لا يضيعك أبدا من يده وإلا يعود إلا معكِ

أتت مي بالحقيبة التي لم تفرغ ، أخذها من يدها مالك وشكر الطبيبة هدى . وفى طريق العودة طلبت الأم من سامي الذي يقود السيارة ، أن يصلها إلى شقتهم القديمة ، فسألها مالك عن السبب فأجابت عليه :

- باقي لك شئ كبير أنت تحتاج عودته

قبل اعتراضه وجدا سامي غير اتجاه السيارة متجه إلى شقتهم القديمة فسلم أمره إلى أمه ، يوصلوا أمام الشارع العمومي وقالت دينا بعد أن فتحت باب السيارة :

- سوف نعود نحن في تاكسي

مشي بعدها سامي بالسيارة وفى عينيه ويده اعتذار اتجه به إلى مالك ، فقدم شيك قائلا :

- أنا أسف يا مالك

نظر مالك في الشيك وأنتظر جواب سامي :

- هذا المبلغ الذي أخذته من لينا مقابل زواجكم

سخر مالك :

- لكن الذي دفعته لها كان أكثر

مزق الشيك واتجه بابتسامة :

- في المرة القادمة اطلب عرض أكثر من ذلك

أستمر الكلام بينهم بين السخرية والمداعبة وعلى بر الجدية والوجع تتقابل فيه نور مع الأم قائلة:

- كنت أتمنى أن أقبل طلبك ... لكن لا أستطيع أنا أسفه

ربت الأم على ظهر نور :

- ربما أقدر شعورك .. أنه أسوء إحساس تمر به المرأة هو الخيانة .. لكن أخشي عليكِ من نتيجة قرارك أن تندمي أنتِ عليه .. ليست الحياة هي التي تضيع منا أجمل لحظات عمرنا .. ولكن نحن باختيارنا نضيعها.

كلمتها أم نور وكأنما تشتكى :

- عريس نور سيأتي غدا

اصطدمت نور بعين دينا التي نقلتها نظرة استياء وكأنها تلومها فقامت دينا قائلة :

- هيا حتى لا نضيع وقت نور في التفكير

نظرت لها نور بانكسار فقامت الأم لكن قبل مغادرتها ، طرقت وحيها لعقل وقلب نور تتأمله :

- أن لم تتأكدي من عشق مالك لكِ .. أعتقد أنه لا يستأهل عشقك .. لكن لو !؟

لا تضيعين من بين يدك إنسان حينما غلط في حقك .. حمل على عاتقه هم الدنيا كله

وأخذت دينا وخرجت عاده إلى مالك بعد أن كانت قررت أخفاء أمر العريس الجديد ، أخبرته وكأنما أرسلته إلى جزيرة تنفيه فيها ، تخيل كل لحظة جمعته مع نور وخرج من كل لحظة بسؤال :

- هل من الممكن بعد هذا الحب .. تكون لغيري ؟

حال الذكريات ينفى ، وموج الحاضر يلاطم وجهه وكأنما يفيق من وهم الماضي ليحتضن خوف الآتي .

على الباب الغرفة من الخارج أرادة أن تدخل أمه لكن منعها العم ، واستأذنها لتحدث معها ، دخلت معه إلى غرفتها ، يحمل في يده حقيبة ، طلب منها الجلوس على السرير ، وضع الحقيبة على أمامها وفتحها ، وأخرج منها البوم صور وجلس بجانبها قائلا :

- كانت زوجتي دائما تحملني ذنبك وكأنني سفاح .. وكنت اقسي على ضميري وكأنني في حالة تحدى .. وأول مرة أشعر فيها بالقهر أمامك .. ولم أكن أتخيل أن أذوب كالجليد عندما رأيتك تحتضني مالك بلهفة واشتياق .. أتت على بالى زوجتي وهى تأكد لي ضعفي لهذا اليوم .. لكنني كنت أكابر .. أنا بعتذر عن كنت سبب عذابك طيلة هذه سنوات

ردت عليه وهى تحاول أن تنسى سنين آساها :

- لم عاد لي مالك شعرت أنني ولدت من جديد .. ويكفى إنك ربيته وجعلته يتخرج من أعظم الكليات .. أنت السبب في كل ما عليه مالك الآن

ابتسمت بالمسامحة :

- متشكرة إنك رجعت لي أبنى

فأعطها البوم الصور وكأنها يهديها هدية :

- هذه صور مالك منذ أن كان طفل إلى ما تري عليه مالك الآن ... أصرت زوجتي إنها تصور لكِ كل يوم يمر من عمره .. لأنها كانت تتأكد من هذا اليوم .. حتى جعلته من وصيتها لي .. هذا البوم من اليوم ملكك

أخذته بلهفة وهى تشكره بشدة ، فتركها بمفردها تنظر في الصور وعند كل صورة تقف باكية . عند كل صورة رحلة طويلة من آساها ، وتبتسم على شكل أبنها وكأنها عادت للوراء بأنها أمامها تخيلت طفولته التي رسمتها من وحى الحنين .

فكان من قبل الخيال في عينيها لم يكتمل ، والآن وضعت الصور مكان البوم خيالها ليكتمل خيالها ،

استمرت تقلب في الصور وكأنه يكبر الآن بين يدها وينتهي البوم ، فوجدت الحقيقة مجسدة أمامها ، رأت مالك جلس بجانبها ووضع ذراعه فوق كتفها ، نظر للبوم وأبتسم ، بلعت في ريقها وكأنها استنشقت روحها التي سافرت وعادت من رحلة طويلة كانت صحاراها مهجورة جرداء ، قبل رأسها ونام بجانبها . فتح مالك عينيه من نومه ، وشعر لما رآه أنه يحلم ، أغمض عينيه وفتحها أدرك أنه في الحياة سأل لما يراه :

– سامحتيني ؟

ردت نور عليه التي أجابت على نفسها أن الحياة بدونه قصر مهجور ، جلست بجانبه كالتي تعاود مريض قائلة :

– حاولت أنساك ولم أستطع

قبضت على كف يده تفتحها سقطت في كف مالك خاتم خطوبتها وفردت إصبع يدها ، فاعد فيه الخاتم وإعادة خاتمه في إصبعه قائلة بتعجب يحرك عينيها :

– متأكدة هذه المرة إنك مستحيل تكرر ما فعلته !

بعد أن تنهد بشدة ، قام يركن على ظهر السرير :

– كنت لازم أشعر بضعفي حتى أعلم أين قوتي .. وعلمت أين الحياة وأين أموت؟ وأين أعيش؟

شعرت بالخجل فقامت تقف :

– أنا خارجه أرى دينا

نهض بسرعة خلفها سند الباب قبل خروجها سألها :

– لازلتِ تتذكري الموعد الذي حددناه من قبل لزفافنا؟

تظاهرت بالنسيان فعادة مسرعه قائلة :

– لم أكن أنا من فقدت ذاكرته !

وتركته وعينيه كأنها تبتسم ارتفعت إلى السماء تشكر الله ، خرج من غرفته وكأنما فتح باب حياه جديد . ألبومه الجديد الذي ملأ الدنيا نجاح وتصوير فيلمه الجديد وفرح دينا والكل حوله بجانبه لتنطوي ليالي العطش وتخضر الصحراء . التي روتها دموع العطش من ليالي العطش .

إهداء إلى روح أختي الغالية

تحياتي

محمود فيصل

mood20004@yahoo.com

٠٠٢ ٠١٠٠٩٠٠٤٥١٣

٠٠٢ ٠٤٨٣٨٩٠١٥٣